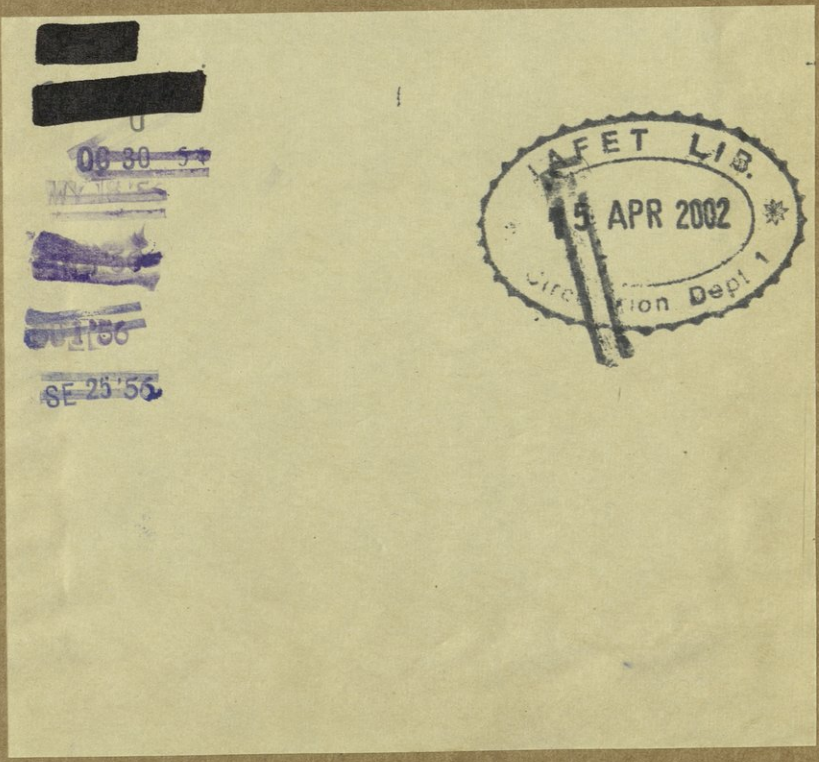
LAFET LIB.
15 APR 2002
Circulation Dept.

833
Se 38jA

جحيم المحبين

رواية عصرية اجتماعية

تأليف

الدكتور شتلجباور الالمانى

Cat. Oct. 1946 Replacement

ترجمة

ادارة الهلال

67063

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

ديباجة

هذه رواية صنَّفها الدكتور ادوارد شتلجباور الالماني ورمى بها الى تعليل منشإ الحرب الحاضرة وبسط اسبابها . وقد كتبها وهو في سويسرا حيث لم تكن يد الاذى لتصل اليه من جانب حكومته التي حظرت عليه العودة الى المانيا ومنعت دخول روايته بلادها

ولما كانت انظار العالم كلها متجهة اليوم الى هذه الحرب التي لم يرو التاريخ مثلها رأينا ان ننقل هذه الرواية مع بعض التصرف الى اللغة العربية حرصاً عَلَى ما يتخللها من الآراء والحقائق التي تخفى على السواد الاعظم من القراء . وهي تمتاز بانها ترينا هذه الحرب من الوجهة الالمانية وتجعلنا ندرك معيشة الشعب الالماني وأحواله الاجتماعية . ولا بدَّ من القول بان رأي المؤلف في هـذه الحرب هو ان المانيا سيقت الى الحرب بقوة قاهرة لم يكن لها عليها سلطة لان لله في هذا الكون خطة مدبرة لا يمكن مقاومتها

ولا ريب في ان هذه الرواية ستقع عند القراء موقع الاستحسان والله حسب وكفى

المترجم

القاهرة فى ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٧

جحيم المحبين

الفصل الاول

التعبية

تبدأ هذه الرواية بحديث جرى بين رجلين صاحبي رمث من الارماث التي يشاهدها المرء عادة على نهر الرين وهي اطواف بسيطة تنقل عليها البضائع على النهر

اما الرجلان فاسم أحدهما يوبست واسم الآخر مولكل . وكانا يمخران برمثهما نهر الرين وقد مرّا بعدة محطات وهما يتجاذبان اطراف الاحاديث

قال يوبست لزميله : — ألم يبلغك خبر التعبية التي أمر بها الامبراطور ؟

فاجابه مولكل (وهو هولندي من مدينة روتردام) : — لم يبلغني ذلك . وظل مجذفاً برمثه

وبعد قليل وصلا الى احدى قرى بافاريا الواقعة على ضفاف الرين فابصرا في شوارعها حركة عظيمة لم يألفاها من قبل . ذلك لان الامر بالتعبية كان قد وصل اليها كما وصل الى سائر انحاء الامبراطورية الالمانية . فلم تكن ترى في الشوارع الا رجالا يهرعون الى الثكنات العسكرية ليلبوا دعوة الامبراطور ويتقلدوا السلاح

وكانت نشوة الحرب قد لعبت بالرؤوس فلا حديث للقوم الا الجيوش التي ستتدفق عن قريب على فرنسا ويجرفها امامها كما يجرف النهر العصافة

وكان في جانب من القرية منزل جميل مبني على الطراز الانكليزي وهو قائم في وسط حديقة جميلة وكلا مرآه ومرأى الحديقة يدل على نعمة ورخاء

وصاحب هذا المنزل رجل من اغنياء الالمان يدعى فون بكرسبرج وهو ضابط في الجيش برتبة ماجور (صاغ قول اغاسي) وقد اشترى منزله من رجل ذي ثروة كان قد عزم على الاقامة ببرلين

وكان فون بكرسبرج قد اقترن منذ ثلاث سنوات بفتاة حسناء لم تقع العين على أجمل منها واسمها ميلاني وابوها رجل من اشراف الالمان كان قد اخنى عليه الدهر

واسمه فون فالكنستين . وبعد ان صرف العروسان — بكرسبرج وميلاني — شهر العسل في بلاد سكندنافية عادا واقاما بمنزلها

* * *

وكان بين ميلاني وزوجها بون شاسع في العمر لا يقل عن عشرين سنة . وكانت من اسرة عريقة في الحسب ورث ابوها عن آبائه املاكاً واسعة في مدينة فيربالن المجاورة لحدود روسيا ولكنه انفق ثروته بلا حساب فاضاعها واصبحت املاكه مثقلة باعباء الديون الباهظة

ففي اول اوغسطس سنة ١٩١٤ — وهو التاريخ الذي تبدأ فيه روايتنا هذه — كانت ميلاني فون بكرسبرج واقفة على احدى شرفات منزلها المطل على نهر الرين تنظر الى امواج النهر تتكسر عليها اشعة الشمس اللافحة وهي غارقة في بحور الافكار والتأملات فعادت اليها ذكرى ايامها الماضية يوم كانت بنتاً في العاشرة من العمر تمرح في الحقول وتتنقل بين بيريس وراونتال وايلتفيل ورودشايم واسمانهوزن وغيرها من الامكنة التي اعتادت ان تصرف فيها اسعد ايام حياتها ولا سيما يوم كانت تركب احد المراكب النهرية وتمتع مسامعها باصوات الموسيقى المطربة

واذا مرت بها ذكرى تلك الايام اجازت يدها على جبهتها كمن يصحو من حلم يمر . ثم عادت الى ذاكرتها جوقة ألمانية سمعتها مرة توقع أنغاماً فرنسوية في احدى البواخر التي تمخر نهر الرين . فقالت في نفسها : « ما أسرع ما تمر الايام . وما أعظم الفرق بين الغابر والحاضر . من فاجعة سراييفو الى الانذار النمسوي الى حوادث اليوم »

وعادت الى ذهنها ذكرى الاغاني الفرنسوية مرة اخرى

وبينما هي تراجع صفحة الماضي كانت العربات والمركبات تمر بجوار منزلها تنقل الجنود والمهمات وتحمل الذخائر والاسلحة

وظلت أفكارها تعود بها الى عهد الحداثة فتصورت أيامها في لوزان حيث تعلمت اللغة الفرنسوية وتخرجت في الموسيقى والآداب الفرنسوية . وقد التقت يومئذ بفتاة تقرب منها في العمر فآلفتها وتعلمت منها اللغة الهولندية . ولكن الموت خطفها منها فذهبت كما ذهب كثيرون غيرها من الاهل والاصدقاء

وكانت وهي تعيد الى ذاكرتها صفحة تلك الحوادث تحنّ بجوانحها كلها الى مواقف

العهد القديم وتتمنى لو يعود ذلك الزمان ولو ساعة واحدة ، ولا سيما باريس — تلك المدينة التي خلبت لبها وأسرت فؤادها . أولم تقضِ فيها أهنأ ايام حياتها وأسعد اوقات حداثتها ؟ ألم تقم فيها زمناً هي وتلك الصديقة المخلصة برتا فون أمثور قبل ان شاءت الاقدار أن تفصلها عنها فتجعلها زوجة للماجور فون بكرسبرج

أجل لقد كانت تلك الايام هنيئة رغيدة فكانت ميلاني تقطعها وهي مقيمة في ذلك الفندق الذي يتمناه الملوك والامراء ، فندق الشانزليزه الشهير . وكان أبوها قد سمح لها يومئذ أن تقيم فيه مع صديقتين اخريين

وهل كان ذلك كل ما رأته في باريس ؟ ألم يكن ثمت ميدان الكونكورد وحدائق التويلري وشارع الشانزليزه ؟ ألم تكن باريس في نظرها مدينة النور والجمال ؟

وظلت على هذه الحال لا ترى في خارطة العالم سوى مدينة واحدة — باريس حاضرة الفرنسيس ومنبت الحسن والجمال . ثم تمثلت لها الاناشيد المطربة التي سمعتها في ملاهي تلك المدينة الساحرة وشوارعها ولا سيما في فصل الربيع — وللربيع في باريس بهجة لا تجدها في غيرها من مدن الارض

وبينما هي منهمكة بتلك التذكارات خيل اليها انها تسمع صوت زوجها . فالتفتت فلم ترَ أحداً فعلمت انها واهمة اذ تذكرت أن زوجها مضطر للمكوث في الثكنة العسكرية ليراقب سير التعبية لان الاورطة التي تحت امرته مضطرة الى السفر في فجر الغد

ثم عادت الى تذكاراتها ثانية فقابلت بين حالتها وحالة صديقتها برتا فون امثور فرأتها مقترنة برجل تعبده ويعبدها . أما هي — ميلاني فون بكرسبرج . . .

ولكن ما الفائدة ؟ سواء كانت تحب زوجها كما كانت تحبه برتا فون أمثور أو لم تكن . ألم تكن التعبية جارية على قدم وساق ومارس اله الحرب يدعو الرجال بعشرات الالوف ومئاتها ؟ ألم يكن جميعهم سواء أمام المدفع ؟ ألم تكن الاقدار عاملة على المساواة بين الجميع ؟

وكان الجنود يمرون سراعاً ببزاتهم العسكرية وموسيقاهم توقع الاناشيد الحماسية وقد زين كل منهم بندقيته بالازهار والرياحين كأن ذلك يخفف من فعل الحمم التي ستتقيأها — أو كأن القوم ذاهبون الى وليمة كبيرة

* * *

وكان أمام الشرفة الواقفة ميلاني عليها شجرة مشمش قد نضج ثمرها وآن زمان قطفها وقد حملت تلك السنة باحسن مما حملت في أي سنة سابقة كأنها علمت بان عليها لصاحبتها واجباً اخيراً

ومرت بذهنها فكرة فابتسمت اذ رجع بها الخيال مرة اخرى الى الزمن القديم . فتذكرت ذلك الشاب الذي أسرها حبه وتملك جميع حواسها ومع ذلك لم تسمح الاقدار بضم نفسيهما معاً

ذلك كان والتر أدولف

شاب في مقتبل العمر . بهي الطلعة جميل القوام . وهو ضابط برتبة كابتن (يوزباشي) في الجيش وقائد للاورطة الثامنة . . .

ولم يكن شبح هذا الشاب قد غاب عن بصرها لحظة . لذلك ارادت ان تقتطف المشمش الناضج من اجله اذ كان سيحضر في تلك الليلة لتناول العشاء معها ومع زوجها لآخر مرة

فقرعت الجرس واستدعت المسز هوف . والمسز هوف مدبرة منزل الماجور فون بكرسبرج . وقد كانت عنده قبل زواجه بعدة سنوات

الفصل الثاني

قلب يتعذب

جاءت المسز هوف . وهي امرأة سمينة كهلة لها في منزل سيدها مقام وشيء من السلطة لان سيدها كان قد اطلق لها الحرية حتى لقد كانت سيدتها نفسها تحسب لها حساباً وجميع الخدام والخادمات — من اميلي واورورا الى كونز وجوزيف — يعلمون مقامها وسطوتها

ولما دخلت قالت لها سيدتها :

— قولي لجاكوب (البستاني) ان يقتطف المشمش من هذه الشجرة

— لقد ذهب جاكوب يا سيدتي

— الى اين ؟

— الى حيث ذهب غيره . ألا تعلمين ان الامر يشمل جميع الذين في سن العسكرية ؟

— نعم نعم . كنت قد نسيت ذلك

— ان الامر يشمل كل ذكر يستطيع حمل السلاح وليس فيه عاهة

— نعم فاتني ذلك . اذاً اقطفي انت المشمش يامسز هوف وضعيهِ على المائدة لاجل العشاء

فتبسمت مسز هوف وقالت :— حسن سأفعل ذلك يا مولاتي

ثم ناولتها رسالة قائلة :— هذه الرسالة لك يا سيدتي

فاختطفتها ميلاني من يدها وبرقت اسرة وجهها اذ عرفت كاتبها . ولحظت مسز هوف ذلك فهزت رأسها كأنها تقول :— انني اعرف كاتب الرسالة

ولم تلحظ ميلاني ذلك لان الرسالة استغرقت جميع افكارها . ففضتها بسرعة وقرأت ما يأتي :

ايتها العزيزة

انني مشغول جداً ولكنني سأحضر اليوم بعد الظهر للوداع

المخلص

ادولف

فلما قرأت ميلاني الرسالة ادمعت عيناها وضمتها الى صدرها . ثم اسرعت فدخلت غرفتها وجلست الى البيانو توقع عليه لحناً كان ادولف يسر به واستغرقت في النقر حتى كادت تغفل عن كل شيء . ثم تذكرت ايامها في باريس والموسيقى المطربة التي كانت تسمعها في الاوبرا ولم تصحُ من غفلتها الا عندما قرعت مسز هوف باب الغرفة ودخلت

فالتفتت اليها ميلاني وقالت :— ما وراءك يا مسز هوف ؟

قالت :— لقد حضر الحمال يا سيدتي . فما هي الامتعة التي يجب ارسالها الى فير بالن

— جميع الامتعة

— العشرة الصناديق ؟

— العشرة

— حسناً . سنرسل العشرة

— ألك سؤال آخر ؟

— ألا تظنين يا سيدتي ان مدينة فيربالن قريبة جداً من الحدود الروسية ؟

— انني لا أخشى شيئاً يا مسز هوف فان بلدة فالكنستين على بعد نصف ساعة منها والواجب يقضي عليَّ بان اكون بقرب والدي . لماذا أفضل الذهاب الى هناك . والى اين تذهبين انتِ ؟

— لا اعلم حتى الآن

— ألم تكتب اليكِ عمتكِ في فولكاخ ؟

— تلقيت منها رسالة هذا الصباح

— وماذا تقول ؟

— تدعوني للذهاب اليها

— وهل تذهبين ؟

— الارجح يا سيدتي . لم يكن بودي ان اهجر بيت سيدي على مثل هذا الوجه.

— ولا كنت انا افكر في ذلك يا مسز هوف ولكن . . .

قالت ذلك وتأوهت . فقالت مسز هوف : — عسى ان لا اكون قد اسأت بشيء الى سيدتي

فقالت ميلاني : — بماذا عسى ان تسيئي اليَّ يا مسز هوف ؟

وكانت تريد ان تقول لها وقتئذ انها تعلم بانها (أي مسز هوف) لم تكن سوى جاسوسة للماجور ولكنها رأت من الحكمة ان تسكت لئلا يصل كلامها الى مسمع زوجها فيغضب

ثم التفتت مسز هوف وقالت : — اذاً سأقول للحمال ان ينقل كل شيء الى فيربالن

— الى فيربالن

ولما خرجت مسز هوف تنفست ميلاني كمن قد ازيح عن صدره حمل ثقيل ثم عمدت الى درج سري ففتحته وأخذت منه رزمة من الرسائل وأخرجت كلا منها من غلافها واعادت قراءتها مع انها كانت تعلم محتويات تلك الرسائل غيباً . الا انها ارادت ان تقرأها للمرة الاخيرة قبل تمزيقها فأخذت تمزقها واحدة واحدة وتلقيها في سلة القصاصات

وقد كانت تلك الرسائل عزيزة عليها وهي الرابطة الوحيدة بينها وبين الزمن

القديم وقد اضطرتها الاحوال الى ابادتها لانها لم تجد طريقة لاخذها معها الى فيربالن مع انها كانت رسائل خالية من كل مايدعو الى الخجل أو الحياء . وانما لم تجد ميلاني من اللائق أن تنقلها معها لانها تذكرها بحبيب مضى عهده وانطوت صفحة غرامه فانتقلت بعد ذهابه من حلم هنيء الى يقظة مخوفة

أجل . ألم تكن تلك رسائل ادولف التي كان يكتبها اليها من برلين الى فالكنستين قبل أن تعرف زوجها الماجور بكرسبرج ؟ اولم تكن ديون ابيها الباهظة اكبر حائل بينها وبين السعادة اذ اضطرت ان تضحي بنعيمها وبحلم سعادتها فتقبل الماجور فون بكرسبرج بعلاً لها على كبر سنه لانه الشخص الوحيد الذي كان يستطيع انقاذ ابيها من قبضة دائنيه ؟

وكانت تلقي على كل رسالة من تلك الرسائل نظرة وداعية ثم تمزقها وترمي بها في سل القصاصات . وبينما هي تفعل ذلك اذا بباب غرفتها قد فتح بغتة ثم دخل زوجها لابساً بزّة ميدان القتال

ورأى زوجته على تلك الحال فلم تقف بل نظرت اليه نظرة مجملة فقال : — ماذا تفعلين بهذه الاوراق يا ميلاني ؟

فقالت : — أحاول أن انسى الماضي وأقطع كل صلة تربطني بالعهد القديم

— وفي أي ساعة يكون العشاء مهيئاً ؟

— في الساعة الثامنة

— حسناً . سأكون هنا في الساعة الثامنة تماماً يا بنية

وكان الماجور يستعمل لفظة « بنية » عند مخاطبته ميلاني اذا كان في حالة فرح وانشراح . وفي الحقيقة ان ميلاني كانت أجدر بأن تكون ابنته من ان تكون زوجته لان التفاوت في السن بينهما كان عظيماً جداً

وكانت علامات الاهتمام بادية على محياه اذ عليه ان يهتم بشؤون اورطته ويديرها بنفسه

وقالت له ميلاني : — سيكون عندنا ضيف على مائدة العشاء

فقال : — أتعنين ادولف ؟

قالت : — نعم . انها آخر ليلة وسيأتي للوداع

فلم يجبها بكلمة بل خرج مسرعاً . فسرت ميلاني كأن حملاً قد ازيح عن عاتقها ولا سيما لانه لم يتماد معها كثيراً في الكلام على الرسائل التي كانت تحرقها والتي دعتها ربط العهد القديم

ولعله لم يضايقها كثيراً لانه لم ير فائدة من الاساءة الى عواطفها في ليلة ربما كانت آخر العهد بينهما . وما الذي يهمه الآن ماضي تلك « البنية » ومئات الالوف ذاهبون الى حرب لا يعلم مصيرها الا علام الغيوب

وعادت ميلاني الى رسائلها . وكانت جميعها مكتوبة على نوع واحد من الورق وهو نوع كان يذكرها بعهدها السالف يوم كان جميع شبان برلين يركعون عند مذبح جمالها الفتان ويتمنى اكبر كبير فيهم ان تأذن له في مخاصرتها او محادثتها الى أن قيض لها الله بعلاً في شخص رجل لم تهوه وانما أرغمت على قبوله بعلاً بسبب ضائقة أبيها المالية

ومنذ زواجها خبرت مصائب الحياة مع انها لم تكن تجاوز لعهد روايتنا الخامسة والعشرين : وكان لديها جميع وسائل اللهو والتسلية من خيل ومركبات واوتومبيلات وخلافها فضلاً عما كان لها من الحلى والجواهر التي كانت تحسدها عليها الاميرات

على أن كل ذلك لم يكن ليجعل الحياة هنيئة في نظرها . وكثيراً ما كانت تتأوه وتقول في نفسها : — من الذي لم يأكل خبزه بالدموع ؟

وظلت تراجع الرسائل واحدة واحدة الى ان انتهت الى اول رسالة بعث بها اليها ادولف من برلين وهي مكتوبة بألفاظ تفيض رقة وهياماً فعادت اليها ذكرى اليوم الذي جاءتها فيه تلك الرسالة وهي في فالكنستين قبيل عيد الميلاد

وبينما هي على هذه الحال اذا بخادم ادولف واسمه فايس قد جاء بثياب الجندية يحمل باقة من الازهار فلم تره في اول الامر لانها كانت مستغرقة في افكارها فبادرها بالتحية معتذراً عن ازعاجها وقال لها :

— قد ارسل هذه الباقة سيدي الكابتن

— شكراً لك يا فايس . هل كلفك أن تقول شيئاً ؟

— قال انه سيجيء الى هنا عما قليل

— سأكون بانتظاره . والان ناولني ذلك الوعاء لاضع فيه هذه الباقة

قالت ذلك واشارت الى وعاء كان ادولف قد اهداه اليها

فانزله فايس وناولها اياه . ثم قرعت ميلاني الجرس طالبة مسز هوف . فلما جاءت هذه ناولتها الوعاء وامرتها ان تضع فيه ماء لئلا تذبل الازهار

ونظرت مسز هوف الى تلك الباقة وهي تعض شفتيها لانها علمت من الذي ارسلها ولكنها أخذت الوعاء من يد سيدتها ولم تقل كلمة . واراد فايس الذهاب فقالت له ميلاني :

— قف قليلاً . هل انت مشغول ؟

— انا رهين اوامرك يا مولاتي

فعمدت ميلاني الى درج كان زوجها يضع فيه اللفائف (السجارات) . فاخذت رزمة منها واعطتها لفايس قائلة : — خذ هذه اللفائف ودخنها على سبيل التذكار

فتناول اللفائف وشكرها ثم قال :

— أتأمر مولاتي بشيء ؟

— قل لي كيف كان منظر الكابتن عندما أعطاك هذه الباقة . أكان مكتئباً أم بشوشاً ؟ ألم يقل لك أمس شيئاً ؟

— لم يقل لي شيئاً أتذكره يا سيدتي وانما اعلم انه كان يصفر ويغني اليوم كله . على ان هذه عادته كما تعلمين

— وأنت يا فايس ؟

— وانا ؟

— نعم وانت . هل انت ذاهب الى خط النار ؟

— لا اعلم الى اين نحن ذاهبون يا سيدتي

— صحيح انكم لا تعلمون فانكم تساقون . . . .

— هذا ما يطلبه منا الوطن

— الوطن ! . . وما هي افكارك يافايس وانت على وشك مغادرة الاهل والاقربين ؟

— افكاري كلها منحصرة في شخص واحد . . . في تلك التي ارجو ان اجعلها شريكة حياتي يوماً ما اذا . . .

— اذا عدت من ميادين القتال

— نعم اذا عدتُ حياً من ميادين القتال . واذا لم اعد فاكون قد ذهبت كما ذهب غيري . وانت تعلمين يا سيدتي ان لكل منا حبيبة ستندبه بعد سفره . ولكن افكار المرء في ساعة كهذه هي الى الامام لا الى الوراء ، الى ميدان القتال لا الى الاهل والاحباء

— ذلك لانك قلما تجد غرامهم حقيقياً

— عفواً يا سيدتي ان حبي لخطيبتي لا تشوبه شائبة وخطيبتي تعلم ذلك جيداً

— وهل حبكما متبادل ؟

— لا شك في ذلك

— اذاً لعلكما تعيشان سعيدين . والسعادة في هذا العالم نادرة

— لولا هذه الحرب لتزوجنا في شهر سبتمبر المقبل . وانت تعلمين يا سيدتي ان لوالديّ قطعة ارض في ولفاخ وقد كانا ينتظرانني انا وعروسي ولكن هذه الحرب قد افسدت جميع حساباتنا

— لعلك تعود بعد اشهر يا فايس وانت حامل رايات النصر ومكلل باكليل الفخار

— ان الحرب لن تطول سوى بضعة اسابيع يا مولاتي

— أتظن كذلك يا فايس ؟

— بلا ريب

— عسى ان تصح احلامك

— بلا ريب يا سيدتي فسنسحق الفرنسويين حتى لا تقوم لهم قائمة

— والروس ؟ ألا تحسبون لهم حساباً ؟

— الروس ؟ هل الكثرة هي التي تغلب ؟ نعم ان جحافل الروس جرارة ولكن ما الذي تستطيع ان تفعله تجاه جيوشنا المنظمة وسلاحنا الكامل ؟

— والانكليز ؟

— والانكليز ؟ وهل تحسب المانيا حساباً لشراذم من الجيوش ؟ اننا سنتغلب على الجميع لا محالة يا سيدتي

فلم تجبه ميلاني بشيء بل ظلت تفكر هنيهة . فاستأذن فايس في الانصراف فصرفته قائلة : — اتمنى لك حظاً حسناً يا فايس وارجو ان تعيش وتعود لتحقق آمالك

فشكرها فايس وخرج . ثم دخلت مسز هوف وبيدها وعاء الازهار وقد جعلت فيه ماء ثم قالت لسيدتها :

— ان مولاي الماجور امرني منذ بضع دقائق ان اغير قائمة الاكل فاستغنى عن صنف الدجاج

— أو نسي الماجور ان عندنا ضيفاً سيتعشى معنا هذه الليلة ؟

— أتعني سيدتي الكابتن ادولف ؟

— هو بعينه . فسيأتي ليتناول العشاء الاخير معنا لانه هو ايضاً مسافر غداً كغيره وهو يحب الدجاج حباً جماً

— اذاً ما الذي تأمرني سيدتي به ؟

— ان تراعي واجب الضيافة

— اذاً لابد من طبخ الدجاج وانما اخشى ان يستاء سيدي الماجور

— هذا شغلي

— حسناً يا سيدتي

ثم انصرفت . فتنفست ميلاني كأن حملاً ثقيلاً قد ازيح عن عاتقها . ثم نظرت الى باقة الازهار فعلمت ان الكابتن ادولف يعرف شدة غرامها بالازهار فاختار لها هذه الباقة ليذكرها في آخر ليلة ان حبها ذبل كما تذبل الازهار

وكان في تلك الباقة زهرة من الصنف المعروف باسم « لافرانس » وكانت تحبها ليس لكبر حجمها وجمال ألوانها فقط بل ايضاً لاسمها الجميل وكان ادولف قد اختارها لعلمه بشدة محبتها لفرنسا ومعرفته بان زهرة « لا فرانس » ستذكرها بتلك الايام الهنيئة التي قضتها في فرنسا بل في باريس حيث لا يعرف الانسان الاّ الابتسام

وفي الواقع انها ما كانت تتذكر فرنسا حتى عادت الى ذاكرتها صفحة من صفحات التاريخ فتصورت ايام الماركيزة بومبادور ومدام منتنون والمارشال نيل وغير اولئك من عظماء فرنسا وعظيماتها

الفصل الثالث

ليلة الوداع

وبعد نصف ساعة وصل الكابتن ادولف وكانت ميلاني قد فرغت من اتلاف جميع رسائله التي كان يبعث بها اليها . وأي غرابة في اتلاف تلك الرسائل بعد ان اقسم الطماعون انهم سيتلفون آثار المدنية الحاضرة كلها في سبيل الحصول على شبر من الارض

ولم تجسر ميلاني على استبقاء رسالة من تلك الرسائل . ثم نظرت الى ما بقي من رمادها فاحزنها ان تكون تلك خاتمة الرواية التي كادت تكون من اهنأ الروايات لولا ان قضت الاقدار على غير ما تشتهي القلوب

وساورتها الافكار كثيراً حتى غابت عن وجدانها وظلت تراجع تاريخ الوقائع الماضية مدة بضع دقائق وهي مغتبطة بتلك الذكرى . ثم انتبهت من سباتها بغتة فعمدت الى البيانو وأخذت تنقر عليه نشيداً يحبه ادولف كثيراً ومطلعه « منذ العهد القديم » وكان لهذا النشيد في هذه المرة وقع مؤثر جداً

واستغرقت في الانشاد طويلا حتى لم تعد ترى ما يقع حولها . وما كادت تجيء على آخر النشيد حتى التفتت واذا بادولف جالساً بقربها ينصت الى ايقاعها وانشادها وقد استغرق هو ايضاً في بحر من اللذة والسرور فوثبت ناهضة وصاحت :— ادولف؟ كيف دخلت ولم اشعر بك ؟

قال : — دخلت وانت مستغرقة في الانشاد فلم اشأ ان اقاطعك لانني اردت ان اتمتع بما تتمتعين به من الغناء

فسكتت هنيهة ولم تجبه بشيء . وعادت تفكر هنيهة كأنها غائبة عن وجدانها . وكانت جميع افكارها منحصرة فيه — في ادولف البشوش الوجه الرفيع الآداب الشريف النفس ، ادولف الذي كان مجرداً من خشونة الالماني ومحلى برزانة الانكليزي وذكاء الفرنسوي ، ادولف الذي كان في نظرها خلاصة الصفات الحميدة في رجال العالم

فدنا منها وقال لها : — لقد جئت لاحادثك بضع دقائق يا ميلاني على انفراد قبل مجيء زوجك وقبل ان . . .

فقاطعته قائلة : — قبل ان تذهب الى ميدان القتال ؟

— نعم قبل ان اذهب الى ميدان القتال

— اذن فادنُ مني لكي اسمع كل ما تقوله يا ادولف

فادنى منها كرسيه هنيهة وكانت الساعة الثامنة الاَّ الربع فلم يبق لوصول زوج ميلاني الاّ ربع ساعة . فنظر اليها ادولف نظرة فهمت منها اشياء ثم قال لها : — هي آخر ليلة يا ميلاني . من يعلم هل نلتقي بعد الان ؟ أتذكرين . . . ؟

فاغرورقت عينا ميلاني بالدموع وقالت والعبرات تخنقها : — لا تتكلم هكذا يا ادولف انت تعلم . . .

— نعم اعلم . . .

— ألا تذكر اول يوم عرفتني فيه في فالكنستين ؟ أتذكر جلوسنا معاً بقرب الغدير وقد مالت الشمس الى الغروب . أتذكر انك طلبت مني بعدئذ ان اقابلك هناك وهناك اعربت لي لاول مرة حبك لي

— اذكر كل ذلك يا ميلاني واذكر اننا كنا سعيدين معاً نحب بعضنا بعضاً حباً لا يستطيع اللسان ان يعبر عنه ولكني لا أعلم ما الذي وقع مني بعد ذاك . . .

— لم يقع شيء من جهتك يا أدولف ولكن اسباباً قاهرة اكرهتني على فعل ما فعلته

— وما هي تلك الاسباب ؟ ألا يحق لي ان أعرفها قبل ان نفترق فراقاً لا امل لي باللقاء بعده ؟

— ادولف !

— هي الحقيقة يا ميلاني . غداً نفترق الى الابد . لهذا اود ان اعلم الحقيقة قبل وصول زوجك . لم يبق سوى عشر دقائق . أتذكرين الاغنية التي وقّعتها لي على البيانو في اول عهد لقائنا ؟

— أتعني نشيد « هاين » الذي يقول في مطلعه : « ما اشد فراغ الكون عند غياب الحبيب فان الازهار تظهر ذابلة والنجوم مظلمة »

— نعم هو ذلك النشيد بعينه وقد كررته لي يومئذٍ مراراً

— و بعدئذٍ ؟

— و بعدئذ ذوت الازهار واظلمت النجوم . نعم قلت لي ذلك وانت متنهدة ثم افلتِ مني وركضت الى حيث لم استطع ان الحق بكِ . فلماذا لم تفصحي لي عما كان يجول بفكركِ يومئذٍ يا ميلاني ؟

— لا تسلني عن ذلك يا ادولف فانك تعذبني وتعذب نفسك على غير جدوى

— لي الحق ان اسألك ذلك لانني على وشك السفر الى حيث تباع الارواح بيع السماح

— من يدري ماذا يحل بك يا ادولف ؟ ان مئات الالوف من الجنود الذين سيسافرون الى حيث تسافر سيعودون بالسلامة مكللين باكليل المجد والفخار فما الذي يمنع ان تكون واحداً منهم ؟

— يمنع من ذلك انني فقدت سعادتي منذ اليوم الذي فقدتكِ فيه . ذلك لان غيري انتصر عليَّ وانتزعكِ مني . فلماذا تآمرتِ عليَّ مع ذلك الشخص ورفضت القلب الذي فتحته لكِ ؟ أليس لي حق ان اعلم سبب ذلك وانا ذاهب الى حتفي ؟

فنظرت اليه وقد حُبست شفتاها عن النطق هنيهة ثم قالت : — لقد اضطررت ان افعل ما فعلته لان قوة فوق قوتي الجأنني الى ذلك

— وذلك ؟

— وذلك ان ابي كان واقعاً تحت عبء ثقيل من الديون ولم يكن من يقدر على انقاذه الا شخص واحد هو بكرسبرج

— أهذا السبب فقط تزوجته ؟

— لهذا السبب لا غير فان دائني والدي اصروا على استيفاء ديونهم . واتفق انه في اليوم الذي جئت فيه لمقابلتي عند الغدير دخلت غرفة ابي فوجدته جالساً في كرسيه مطرقاً في الارض كالمجنون الغائص في لجج الافكار . وكان بيده عيار ناري يقصد ان يلهب به دماغه لولا ان تداركته وحلت دون تنفيذه مرامه

— أهذه هي حقيقة الحال ؟

— هي الحقيقة كلها . فان ابي افهمني انه ليس ثمت الا طريق واحد لانقاذه وهو ان اقبل بكرسبرج بعلاً . أفتظن انه كان في وسعي ان اخيب امنية والدي ؟

— كلا يا ميلاني

قال ذلك وقد مرت به قشعريرة باردة وغاص في بحر من الافكار . فعادت هي الى البيانو واستأنفت ايقاعها

وبينما هما على هذه الحالة اقبل الماجور بكرسبرج . وكانت الساعة الثامنة تماماً . فجلس على كرسيه ثم نادى مسز هوف فلما دخلت سألها :

— هل العشاء حاضر ؟

— نعم يا سيدي

— هل اثلجتِ الخمر ؟

— نعم يا سيدي

— ضعي في المثلجة ثلاث زجاجات « موزيل » فاني عطشان جداً

الفصل الرابع

العشاء الاخير

جلس بكرسبرج وزوجته واودلف الى مائدة العشاء وهم سكوت كأن على رؤوس جميعهم الطير . وكان كل منهم يفكر في ما سيجيء به الغد وقد زينت ميلاني الخوان اكراماً لادولف وأن هي لم تصرح بذلك . وادرك كلٌّ من أدولف وبكرسبرج ذلك فكان الاول جذلاً شكوراً والثاني ممتعضاً مستاءً الا انه كان يحاول كظم ما في نفسه

وفي الواقع ان بكرسبرج كان يعلم بميل زوجته الى أدولف ولها كانت عازمة أن تقبله بعلاً لو لم تضطر أن تعدل عنه بسبب ديون أبيها . ومع ذلك لم يحاول بكرسبرج أن يمنعها من مقابلة أدولف أو ان يمنع أدولف من زيارة بيته

وقد اراد في هذه الليلة الاخيرة أن يظهر بمظهر الشهم ويتجاهل ما بين زوجته وأدولف من العواطف المتبادلة . فتشاغل بالاكل تاركاً لهما (أو متظاهراً بانه قد ترك لهما) حرية التخاطب بالشفاه والعيون

الا ان الغيرة كانت تأكل حشاشته فقال في نفسه : — لقد دنا يوم الحساب . ليس بين شعوب أوربا فقط بل بين افرادها ايضاً

وظلت الافكار تتجاذبه . ورأى ان أدولف قد افرغ كأسه فملأها ثانية وقال : — اشرب يا أدولف فانها الليلة الاخيرة

فقال أدولف : — شكراً لك يا بكرسبرج . لقد ملأت الكأس حتى طفحت

فقال : — نعم لقد طفحت . وهل كأسك فقط هي التي طفحت ؟

ثم رفع كلاهما الكؤوس يشربان معاً . وظلت ميلاني ترقبهما وخطر ببالها انهما غداً سيسافران بصحبة الجيش وليس من يعلم ما يحل بهما سوى علام الغيوب . ولكنها تصورت باريس الجميلة وقد اصبحت تحت سنابك الخيل . فاغرورقت عيناها بالدموع لانها تذكرت ايامها الهنيئة في تلك المدينة الساحرة يوم لم تكن تعرف من الحياة الا السعادة والهناء

والتفت اليها زوجها كأنه قد نسيها فاراد أن يملأ قدحها فرفضت قائلة : — لا أريد أن اشرب شيئاً

فابتسم ابتسامة فهمت منها الف معنى وقال : — أصحيح ؟ ألا تشربين ؟

ولم تشأ ان تبقي في نفس زوجها اثراً سيئاً في الليلة الاخيرة . فقالت : — اذا كان يسرك أن تراني اشرب فانني افعل ذلك بكل سرور . املأ قدحي

فملأ قدحها وقدحه وقدح أدولف وقال : — لا بد لنا من الشرب معاً في هذه الليلة الاخيرة . لنشرب نخب الجيش الالماني الذي سيعود منتصراً

فرفع الثلاثة اكؤسهم عند الاشارة الى انتصار الجيش . وقبل أن تمس شفتا ميلاني كأسها سقطت من يدها وتحطمت . فصاحت ميلاني مذعورة « آه » ونهضت عن كرسيها لان الخمر انسكبت على المائدة وانتشرت على الغطاء ثم أخذت تسيل عن الحوافي

أما بكرسبرج فقال : — لا بأس . لقد تحطمت ولم يبقَ منها الا الكسر

قال ذلك ونظر الى ميلاني نظرة حادة فهمت المقصود منها

أما أدولف فحاول ان يصرف الافكار عن تحطيم القدح وقال ان ذلك رمز الى تحطيم العدو

وجاءت مسز هوف وأخذت تجمع الحطام فسألها : — هل هنالك صنف آخر من الطعام ؟

فاجابت ميلاني : — نعم . الدجاج

فقال زوجها : — حسناً . انك تعلمين ذوق زوجك وذوق ضيوفك

— نعم

وبينما هي تقطع الدجاج التفت بكرسبرج الى أدولف وقال له :— أتعلم قصيدة كاستلان دي كوسي ؟

— نعم

— اذن دع زوجتي تعطيك قلب الدجاج

— القلب ؟

— نعم القلب . ألا تعلم ان للدجاجة قلباً كالانسان ؟

فحدجته ميلاني بنظرة تبكيت ولكنها ظلت صامتة

ولما فرغوا من الطعام تناول زوجها صحن الفاكهة وكان فيه المشمش والتفاح وقدمه اليها . فتناولت مشمشة ولم تأخذ شيئاً من التفاح . فالتفت بكرسبرج الى ادولف وقال له :— أتعلم ان أحد الاسباب التي أدت الى حرب تروادة كان تفاحة في يد امرأة ؟

— كنت قد نسيت ذلك

واذ ذاك نهضت ميلاني عن المائدة وطلبت القهوة ولم يكن يخطر ببالها ان زوجها يتصرف ذلك التصرف في الليلة الاخيرة . وبينما القهوة تدار سألها : — هل جهزت كل شيء يا ميلاني ؟

— كل شيء

— ألم تهملي أمراً ؟

— على الاطلاق

ثم التفت بكرسبرج الى ادولف وقال : — عسى ان تكون مسروراً لوجودك معنا في العشاء الاخير

فقال ادولف : — كيف لا وأنا لا أتوقع ان أتلذذ بعشاء كهذا حتى تضع الحرب أوزارها ؟

— وكيف ذلك ؟

— أنسيت المطابخ العسكرية ؟

فابتسم بكرسبرج قليلاً وقال : — نعم . نعم . ولكن من يعلم ؟ الارجح اننا سنتمتع باطايب الاطعمة في فرنسا ونشرب فيها الخمور المعتقة

— أتظن ذلك . . ؟

— أو نسيت صروح الاغنياء الفرنسويين وما فيها من الاقبية المملوءة خموراً معتقة !

قال ذلك ونهض قائلاً : — انني ذاهب الى الثكنة . ثم خرج بطريقة ليس فيها اثر من اللطف

وكان ذلك خلقاً معروفاً في بكرسبرج كما انه كان يحب ايذاء خصمه بقوارص الكلم

الفصل الخامس

قوارص الكلم

أشرق البدر على نهر الرين فكانت الامواج الهادئة تعكس اشعته الفضية من خلال الزرد المنسوج على وجهه . وكان لتلك الامواج مرأى هو رمز الهدو والسلام الا في تلك الليلة فان ضفافه كانت تضج بالصراخ المنتشر في جميع انحاء المانيا من « الرين » الى « مهل » ومن « اوديج » الى « البلت »

أجل فقد خيل الى ميلاني في تلك الليلة انها تسمع صوتاً بالغاً عنان السماء — صوتاً يختلف عن جميع الاصوات التي اعتادت سماعها قبل الآن . فتصورت الافلاك على وشك التصادم وتمثلت لها الآلهة وقد نهضت لوضع نظام جديد للكائنات ورسم خريطة منقحة لممالك العالم

* * *

وكان زوجها قد نهض عن المائدة وانصرف تاركاً اياها مع ادولف فاخذت الافكار تتقاذفها كريشة في مهب الريح وكأن قوة غريبة سرت في عروقها فلم تعد تخشى شيئاً في العالم حتى الموت . ولماذا تخشاه والحياة على ما هي عليه من اكدار واتراح . أو ليس العالم على وشك ارسال الملايين من نخبة رجاله الى المجزرة الكبرى حيث تباع الارواح وتشرى بابخس الاثمان ؟

ثم خيل اليها انها تقرأ في الصحف قوائم القتلى في المعارك المقبلة وترى الحفر التي تطرح فيها بقاياهم والصلبان الخشبية التي تقام عليها . فازعجها هذا الفكر وأقلقها حتى عرتها قشعريرة باردة

ولحظ ادولف تغيير لونها واغراقها في بحر التأملات فقال لها : — مم تشكين يا ميلاني ؟

فقالت : — لا أشكو شيئاً يا ادولف . وانما أتأمل في سورة الجنون التي قد تناولت عقول البشر حتى دفعتهم الى هذه المجزرة الفظيعة

— وما الذي يخيفكِ أنتِ ؟

— يخيفني المستقبل يا ادولف ؟

— وكيف ذلك ؟

— ان هاتفاً يهتف في داخلي ويقول لي ان المستقبل مظلم وان هنالك أخطاراً تتهددنا

— ولكن ما هي هذه الاخطار ؟

— لست أعلم ولا أستطيع الانباء بها ولكن ألا تشعر أنت بمثل شعوري ؟

— كلا

— لقد كنت اظنك دقيق التصور

— آسف انني لست كذلك يا ميلاني . ولذلك لست أرى شبح الاخطار . ولو رأيته أيضاً ما كنت أقلق بسببه

— ألا يهمك ارسال الالوف الى حتوفهم لغير علة ارتكبوها ؟

— هو النظام الاجتماعي يا ميلاني

— أولا ترى وراء هذا النظام ذلك المشهد المخوف ؟

— أي مشهد ؟

— ذلك المشهد الذي وراء الجبال التي تفصلنا عن فرنسا — فرنسا العظيمة الهائلة — فرنسا الجميلة المحبوبة — ذلك القبر الواسع الذي سيضم بقايا مئات الالوف من نخبة شبابنا ورجالنا ؟ أوليس مجرد الفكر مما تنفر منه النفس الشريفة

— نعم ولكنها المطامع يا ميلاني . وأصحاب السلطة لا يفكرون الا في تشييد عروشهم على جماجم الاعداء والاصدقاء

— أجل . تراهم يسيرون ألوفاً ألوفاً متعطشين الى شرب دماء غيرهم ممن لا يعرفونهم ولم يروا وجوههم قط . انكم تسيرون الى حتوفكم كما تسير الشياة الى المجازر

— لعل زوجك يعود اليك سليماً من هذه المجزرة مكللاً با كاليل المجد والفخار واذ ذاك لا تعودين تتذكرين احزان الآخرين

فرمقته ميلاني بنظرة حادة خرقت احشاءه وقالت له : — انك تحاول أن تسحق نفسي في داخلي

— ولكن ألا يسرك أن يعود زوجك وقد ساعده الحظ على لبس اكاليل المجد والفخار وقام بالواجب الذي يفرضه عليه الوطن . ألا يسرك أن يرجع اليك يوماً ما و يقول لك : « ميلاني اننا قد نلنا النصر » ؟

فتأوهت ميلاني وقالت : — نعم . النصر ! انني ارى موكب المنتصرين يعودون فرحين جذلين وعلى جباههم اكاليل الغار المبلولة بالدماء

ورأى ادولف انه ليس من الحكمة الاغراق في هذا الموضوع . فحاول صرف أفكارها عنه فقال :

— لندخل فان الهواء الذي يأتي من جهة النهر بارد جداً

فقالت : — بل لنبق هنا لانني لست اشعر ببرد . ولكن اذا كنت تفضل ان ندخل فليكن لك ما تشاء

فامسك ادولف بيدها واقتادها الى الداخل

ولما استقر بهما المقام امسكا هنيهة عن الكلام وكل منهما يحدق في وجه صاحبه ملياً . وخطر ببال ميلاني فكر فاسرعت الى الدرج الذي كانت تحفظ فيه رسائل ادولف واخرجت منه شيئاً وناولته لادولف قائلة : — ألا تقبل هذا مني هدية ؟

فلم يعلم ادولف في اول الامر ما هو فتناوله واذا به رسمها وقد كان دائماً يتمنى الحصول عليه وطالما طلبه منها في الرسائل التي كان يرسل بها اليها . ونظر الى الرسم ملياً فذكره بالايام القديمة اذ كانت في برلين وكان يلاقيها مراراً . . فقبل الرسم تكراراً وكاد الدمع يطفر من عينيه فارتمت بين ذراعيه وتنهدت من كبد حرى وقالت : خذه يا ادولف واقبله مني على سبيل التذكار

فقال : — شكراً لك ياميلاني . فسيكون هذا الرسم تعويذتي التي تقيني البلايا . واذا قدّر لي انْ اموت فسأموت وهو بين يديّ

— عسى ان يكون ترساً يقيك نبال الاعداء في هذا اليوم الذي قد وزن الله فيه العالم فوجده ناقصاً

— سيكون ما تقولين ياميلاني ان شاء الله

ولم يكد يفرغ من عبارته حتى رن في الفضاء نفير بوق يدعو الجنود فذعرت ميلاني وقالت : — ما الخبر ؟

قال : — هو النفير الذي يدعو الجنود من النوم

— من النوم ؟

— نعم . يجب ان يستيقظوا في الساعة الحادية عشرة ليلاً فانهم ينامون ساعتين في النهار ويجب ان يستيقظوا الان ويتأهبوا

— ربما كانت هذه آخر مرة يسمع فيها الكثيرون هذا النفير . . .

— ربما . وربما كنت انا واحداً منهم يا ميلاني فان اعمارنا رهن الاقدار

— لا تقل ذلك يا ادولف فانه يحزنني

— لست اريد ان احزنك يا ميلاني ولكن من الحقائق ما تمنى لو انها تبقى مكتومة عنا ولو انا نظل جاهلينها

— وفي اية ساعة يسافر القطار ؟

— في الساعة الخامسة والنصف صباحاً

قال ذلك وحاول ان يحضنها ولكنه عدل عن ذلك لانه رأى مسز هوف مقبلة . فلما وصلت سألتها ميلاني بنغمة التذمر :

— ماذا تريدين يا مسز هوف ؟

— عفواً يا مولاتي ان كنت قد ازعجتكما ولكن مولاي امرني بايصاد المنزل في الساعة الحادية عشرة وانا اخشى ان الكابتن ادولف ليس معه مفتاح حتى يتمكن من الخروج

فحرقت ميلاني الارم من شدة الغيظ لما اظهرته مسز هوف من الجرأة والقحة . وزادها استياء ان الوصيفة وقفت تنظر اليها والى الكابتن ادولف نظرة ابتسام ممزوج بالازدراء . ولكنها كظمت غيظها وقالت في نفسها : — ليس الامر جديراً بالاستياء فغداً تتفرق ولا اعود ابصر وجه هذه الوقحة

ثم التفتت الى مسز هوف وقالت لها :

— لا بأس يا مسز هوف فان الكابتن ادولف على وشك الانصراف

وقال لها الكابتن ادولف :

— شكراً لكِ لتذكيرك اياي والاّ فربما كنت اضطر الى المبيت هنا اذ ليس معي مفتاح

فقالت : — ان مولاي امرني بايصاد الابواب في الساعة الحادية عشرة تماماً

فلم يفه ادولف ببنت شفة سوى انه التفت الى ميلاني والدموع تترقرق في مآقيهما وقال لها : — الوداع يا ميلاني

ثم خرج والعبرات تكاد تخنقه

الفصل السادس

الوداع

كان اشتداد الهرج والمرج عظيماً واجراس الكنائس تقرع قرعاً متواصلاً كأن المانيا قد نالت الانتصار على اعدائها قبل ان تتحرك كتائبها وقبل ان يطلق جندي بندقيته

وكانت ميلاني غارقة في بحار التأمل وهي لم تذق طعم المنوم في الليلة الماضية لانها قضت الليل وهي تتقلب على جانبيها منتظرة طلوع الفجر وبزوغ شمس الصباح — ذلك الصباح المخوف المهوب

ثم طلع الصباح واشرقت الشمس وقرعت ساعة الوداع . وكانت مسافرة الى برلين هي ايضاً في ذلك اليوم . فوقفت قليلاً امام نافذتها معرضة للهواء البارد واخذت تنظر الى الافق وتجيل نظرها في الفضاء كأنها تبحث عن شيء قد اختفى . وكان في الجو غيمة وفي نفسها غيوم

وما هي الا نصف ساعة حتى ودعها زوجها وانصرف . وكان وداعه قصيراً ناشفاً ليس فيه اثر للعواطف أو للانفعال — فكأنه كان خارجاً الى نزهة وسيعود بعد ساعة

وشعرت ميلاني كأن العالم كله يميد تحت قدميها أو كأنها واقفة على شفير هاوية لا قرار لها ولكن شعاع امل ضئيل كان يخترق ساعتئذ دجى قلبها المنسحق

وحاولت ان تجمع افكارها في هذا الصباح وتحصرها في ادولف وحده ولكن شبح زوجها كان يتمثل لها دائماً وهو راكب حصانه وسائقاً « اربطته » الى شفير الهاوية

وظلت الافكار تتجاذبها وهي ترتجف من قشعريرة الصباح ومن مضايقة افكارها لها . وبينما هي كذلك اذا بالابواق تنفخ والطبول تضرب مؤذنة بالرحيل

وعلمت ميلاني ان « الآلاي » الذي ينتمي اليه ادولف على وشك المرور امام منزلها على الطريق الى المحطة . فأخذت نبضات قلبها تدق مسرعة . واطلت من نافذتها فرأت الناس في الشرفات والنوافذ قد اطلوا ليشاهدوا مرور الجنود و بعضهم ينثر عليهم الورود والازهار . وكانت سطوح المنازل مزدانة بالرايات وأجراس الكنائس تقرع قرعاً متواصلاً فاخذت ميلاني تسأل نفسها : — ترى هل هو موكب نصر اكيد ام هي جنازة ألمانيا المندفعة بعنادها ومطامعها الى عمق الهاوية

وزادتها افكارها قلقاً وانزعاجاً حتى ظنت نفسها تسبح في بحر لا ساحل له — في بحر اللانهاية الذي لا تستقر فيه سفينة ولا يرسو فيه مركب . ولم تر من خلال تلك الفوضى الخيالية سوى شبح زوجها مقطب الحاجبين وشبح ادولف باسم الشفتين

ودنت الجنود من منزلها فتعالت اصوات الطبول وقوي ضجيج وقع الاقدام . فحدقت بأبصارها الى الشارع فرأته غاصاً بالناس كأن المدينة كلها قد خرجت في ذلك اليوم المشهود . وكان وراء الجنود جيش آخر من النساء والاولاد والشيوخ يسيرون وراء ذوي قربهم لتوديعهم ومنظرهم اشبه بالبحر الزاخر او هو السيل المتدفق يجري لينتهي الى الاوقيانوس العظيم

وفي وسط ذلك الضجيج كانت الموسيقى العسكرية تملأ الفضاء بالنشيد الالماني الذي يقول في مطلعه :—

« المانيا فوق الجميع
المانيا الى الابد
بنوها البواسل متحدون في الحرب
يقفون معاً في القتال »

وكان قائد هؤلاء الجنود ضابطاً برتبة كولونيل يعرف ميلاني جيداً واسمه فون تروتمان . وكأنه اراد ان يحيي ميلاني تحية الوداع فلما وصل الجنود امام منزلها امر الموسيقى العسكرية ان توقع لحناً حماسياً خصوصياً . فاطلت ميلاني من الشباك ولوحت الى الكولونيل محيية اياه بابتسامة لطيفة . فرد الكولونيل التحية بسيفه كما يفعل قادة

الجيوش . وتذكر انه قابلها لاول مرة في حفلة رقص في منزل احد اصدقائه فقال في نفسه : — أتكون آخر رؤيتي لها في حفلة رقص الموت ؟

والغريب ان هذا الفكر خطر ببال ميلاني ايضاً . فقالت :— أليس هؤلاء الجنود زاحفين ليحضروا رقصة الموت مندفعين اليها بمطامع قادتهم الذين جنوا بحب الشهرة والعظمة ؟

وكانت بنادق معظمهم وخوذهم مزدانة بالازهار وأوراق البلوط كأنهم يستعدون لحضور وليمة وقد تأهب اهل المدينة كلهم لحضور تلك الوليمة

وتذكرت ميلاني اذ ذاك حفلات المصارعات الرومانية يوم كان يمر المتصارعون امام قيصر ويحيونه قائلين : — السلام يا قيصر . يحييك الذين سيموتون !

وكان وقع اقدام الجنود يملأ الفضاء والكتائب تتوالى وتمثل قوة المانيا العظيمة حتى أن ميلاني نفسها ترتجف اعجاباً بتلك القوة الهائلة

وكانت تترقب مرور ادولف راكباً جواده الابيض ولا بدّ أن يمر حالما تظهر « اورطة » الماجور بكرسبرج لان « البلوك » الثامن كان من تلك « الاورطة » . فاتكأت على عتبة نافذتها وأمسكت بستار النافذة . وما هي الا بضع دقائق حتى مرَّ زوجها في مقدمة « اورطته » فتمثل لها بصورة ملاك التدمير والتخريب . ثم تبعه ادولف بوجهه المشرق وثغره البسّام . ولم يسعه الا ان يرمقها بنظرة خرقت احشاءها فاسرعت ورشقته بوردة حمراء فسقطت على الارض فالتقطها بطرف سيفه ثم حياها . وصاح بالجنود « الى الامام »

« الى الامام ! »

رنَّ ذلك في اذني ميلاني فتصوَّرت ملاك الموت يصيح بجنوده « الى الامام ! الى الهاوية ! »

الفصل التاسع

سفر ميلاني

في ذلك اليوم ركبت ميلاني القطار قاصدة الى برلين . وخيّل اليها وهي في القطار أن مرحلتها طويلة لا نهاية لها . وكان نقل الركاب قد اصبح محدوداً ليتسع المجال لنقل

الجنود الى الحدود . فكنت ترى الجحافل تسير بوجه السرعة الى لكسمبرغ والبلجيك وشمالي فرنسا بقصد الاستيلاء على باريس — باريس قلب فرنسا ومهبط الوحي والجمال

و بعد سفر اربع وعشرين ساعة بالقطار وصلت الى محطة « ارفرت » وهنا أيضاً رأت حركة الجيوش على اتمها فادهشها اتساع موارد الرجال في المانيا وقالت في نفسها :— حقاً ان المانيا لا يمكن أن تُقهر ! وشغلها مرأى تلك السيول المتدفقة من الجيوش عن موارد اعداء المانيا في الاموال والرجال . فنسيت معامل البلجيك الاقتصادية وقوة فرنسا الخالدة وموارد انكلترا الواسعة وكثرة مستعمراتها الغنية ومجاهل روسيا الشاسعة ونشاط اليابان الفتية . نسيت كل ذلك وقالت في نفسها : ان المانيا لا تقهر

وكانت المشاهد متماثلة في جميع المحطات التي كان القطار يقف فيها ، جحافل كالبحار الزاخرة والسيول المتدفقة فان كل مدينة وقرية ومزرعة بل كل مكتب وبيت ومعمل في المانيا كان ينبت رجالاً

ولم يقف القطار بمحطة ارفرت طويلاً بل غادرها مسرعاً بمن يقلهم من جنود وملكيين . وكان ضابطان برتبة ملازم قد دخلا الغرفة التي فيها ميلاني وهما قاصدان برلين ووجهاهما يطفحان بشراً . وكان احدهما اشقر الشعر ابيض البشرة والثاني اسود الشعر اسمر اللون ويدل مرآهما على انهما ربيبا نعمة وانهما لم يعرفا بعد مصائب الحياة اذ لا يزالان في مقتبل العمر وقد لبيا داعي الوطن فتقلدا سيفيهما

وكانا يتحدثان ويقهقهان

قال احدهما : — عسى ان احصل على واحد

فقال الآخر : — على أي شيء

— على الصليب ، الصليب الحديدي

— أو هذا جل ما تتمناه ؟

— جل ما اتمناه . وأنت ؟

— جل ما اتمناه هو أن ينتصر الوطن اولاً وما الصليب الحديدي سوى ثانٍ في المقام ولا يبعد ان يعود الجنود بعد بضعة اسابيع من الحرب وكل منهم حامل صليبه الحديدي فماذا تكون قيمته اذ ذاك ؟ ان الشيء اذا كثر بات مبتذلاً

— ولكن الصليب الحديدي هو ارفع اوسمتنا قدراً وأغلاها قيمة

— هو كذلك لمن قد تملك منهم الغرور . والناس كما تعلم عبيد للغرور والحكومة تعلم هذا فتحاول ان تشتري منهم دماءهم بقطعة من الحديد

— انني لا اوافقك على هذه الآراء ولا ريب عندي في انك ستقلع عنها متى عدت الى برلين وأنت حامل ذلك الوسام على صدرك واذ ذاك تصبح قبلة الانظار ويحوم حولك الابصار فتعرف قيمة الصليب الحديدي

قال ذلك كأنه واثق بأنه لا بد من عودته سالماً يحمل اوسمة المجد والفخار . وفاتهُ أن فرنسا — فرنسا الجميلة — سترحب بابناء المانيا وتعدُّ لهم قبوراً رحبة

وظل القطار ينهب الارض نهباً حتى دنا من برلين . وكانت ميلاني تشعر دائماً بكره داخلي لتلك المدينة لا تعرف سببه . وقد ازداد ذلك الكره في هذه المرة اذ تعلم ان برلين هي قلب المانيا وان كل ما رأته من الجحافل الجرارة في مدن المانيا وقراها ليس شيئاً يذكر في جانب ما لا بد ان تراه في برلين

وزادت اذ ذاك سرعة القطار . فمر بمحطات « زاهنا » و« پوتربوك » و« تلتوف » و « جروس لختر فلد » و « بابستراس » . ولما دنا من محطة « انهالت » اخذ يسير ببطء الى ان وقف تماماً . فخرجت ميلاني ورأت المحطة اشبه بثكنة تعج بالجنود وكلهم ينتظرون القطرات لكي تقلهم الى الحدود وقد جاء لتوديعهم الاباء والامهات والاخوات والاقربون فكان المنظر اشبه بيوم الحشر

وخرجت ميلاني من المحطة وسارت في شارع « كونج رتزر » فرأت كتيبة الحرس الامبراطوري تحمل راياتها الممزقة منذ حرب السبعين وقد خرج الناس الى الشرفات والنوافذ ليشاهدوا ذلك الحرس الذي هو عنوان مجد الجيش الالماني ونخبة كتائبه

وبينما ميلاني تراقب ذلك المشهد اذ فتح طريق في وسط الجماهير المزدحمة وتناقلت الافواه هذه العبارة وهي : — الامبراطور مقبل !

فأمالت ميلاني وجهها الى الجهة التي كان ينتظر منها قدوم الامبراطور . فلما وصل حدقت ببصرها فيه فرأت لونه شاحباً وعيناه غائرتين وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام كأنه رازح تحت عبء ثقيل . واي عبء اثقل من ان يتحمل الانسان تبعة ارسال الملايين من نخبة رجال الامة الى ساحات القتال ودفعهم على المحاربة في سبيل حكامهم ومطامع مغروريهم

الفصل العاشر

في حانة القرية

كانت المركبة الخاصة باسرة فالكنستين قد أرسلت الى المحطة لانتظار ميلاني ولم يكن من الممكن معرفة مواعيد القطرات يومئذ بسبب نقل الجيوش ولذلك ارسل البارون دي فلكنستين (والد ميلاني) مركبة الى المحطة قبل الميعاد بزمن طويل ولما رأى كريستيان (الحوذي) ان القطار سيتأخر كثيراً ترجل من المركبة ودخل حانة القرية التي اعتاد التردد اليها كل يوم لقضاء ساعة فراغه بين زمرة من اصحابه

وقد وجد هناك ساعتئذ جميع اصحابه فجلس بينهم وخاض معهم في احاديث السياسة بقدر ما تفهمها عقولهم

وكان اصحابه هؤلاء ينظرون اليه بعين الاحترام لكونه حوذي البارون فالكنستين

وكان في احدى زوايا الحانة رجل عجوز يناهز الثمانين من عمره وقد اعتاد التردد الى هذه الحانة وصار معروفاً بين جميع الزبائن وكثيراً ما كان يجلس بينهم ويروي لهم احاديث نبوليون التي سمعها من ابيه ولا سيما حكاية تقهقره من روسيا سنة ١٨١٢ فقد كان والده في جملة من صحبوا نبوليون الى موسكو وعادوا معه

وكان المجتمعون يتناقشون في امر التعبئة وفي متى تنتهي الحرب مع انها لم تكن قد ابتدأت . والغريب ان كلهم كانوا متحمسين وهم برأي واحد فيما يتعلق بضرورة انتصار المانيا على اعدائها الا هذا الرجل العجوز (واسمه بطرس) فقد كان يعتقد ان محاربة روسيا ليست من الهنات الهينات

الاّ ان كريستيان — وهو اشدهم تحمساً — لم يكن ليوافق على آرائه بل كان ينظر اليه بعين المقت والازدراء

وقد روى بطرس عن ابيه ان الجيش الذي غزا به نبوليون روسيا كان من احسن جيوش اوربا بل من احسن جيوش العالم ومع ذلك لم يرجع منه الا النزر اليسير

فسأله أحد الحاضرين : — وكيف كان ذلك ؟

قال : — كان في الجيش عدد عديد من البافاريين والبروسيين لان نبوليون ارغمهم على السفر معه ولكنهم ما عتموا ان وصلوا الى موسكو حتى شرعوا يتقهقرون وكان في ذلك الطامة الكبرى لان معظمهم هلكوا ودفنوا تحت الثلوج

— أصحيح ما تقول ؟

— لا يقل عن الكتب المنزلة صحة وصدقاً . فروسيا هي العدوّة التي نجهل قوتها الحقيقية ولذلك فمن الغلط محاربتها . ان مشكلتها لمشكلة عظيمة . وهذا ما كان ابي يقوله دائماً

— ولكن هل هي أقوى من المانيا ؟

— ان مساحتها في اوربا فقط هي مئة ضعف مساحة پروسيا . أما مساحتها في اسيا فما لم يقف له احد على اثر

— ولكن العبرة ليست بالمساحة

— بل هي بالمساحة وبالسعة وبعدد السكان وبكل شيء . ولا تنس ان البلاد في شهري ديسمبر ويناير هي مكسوة بالثلوج ويكون البرد قاسياً جداً الى حد انه يستحيل على اوربي ان يعيش هناك

وكان كريسيتان منصتاً لهذا الحديث وقد ضاق ذرعاً ببطرس وفلسفته . فقال له متململاً : — لقد يكون في ما ذكرت شيء من الصحة عن عظمة روسيا وسعة مساحتها ولكن الحرب لا تكون بالمساحة بل بالرجال

— بل بالمساحة وبالرجال معاً

— لقد تغيرت الاحوال عما كانت عليه في ايام نبوليون

— ولكن روسيا هي هي في برودة هوائها وسعة مواردها . ولذلك كان والدي يقول ان محاربة روسيا ضرب من الجنون

— ولكن تذكر اننا نحن الآن في سنة ١٩١٤ لا في سنة ١٨١٢ يوم غزا نبوليون روسيا وان بين التاريخين فرقاً عظيماً . ومعدات الحرب التي عندنا اليوم هي غير المعدات التي كانت على عهد نبوليون

— قد يكون هذا صحيحاً ولكن . . .

— دعني اكمل . . . ان برودة هواء روسيا وثلوجها لا تهمنا لاننا الان في اشهر

الصيف وهذا فرق عظيم بين غزوة سنة ١٨١٢ وحرب هذه السنة

— ولكن الشتاء يحل في روسيا مبكراً

فضحك كريسيتان ضحكة ازدراء بصوتٍ عالٍ وقال : — واين تظن سيكون جنودنا قبيل دخول الشتاء الروسي

— اين ؟

— سيكونون قد عادوا الى اوطانهم حاملين اكاليل المجد والفخار

— واذا طالت الحرب ؟

— اذاً سيكونون في بطرسبرج يتزحلقون على نهر نيفا المتجمد ويملون شروط الصلح على الاعداء . هذا ما سمعت من مولاي وانتم تعلمون مقامه في عالم السياسة ولا سيما ان له اصدقاء في وزارة الحربية ببراين حيث قد وضعت الخطة الحربية لغزو روسيا واجتياح جميع بلاد الاعداء

وكان الزبائن — وكلهم من الفلاحين — يصغون اليه بانتباه . فلما ذكر علاقة مولاه بوزارة الحربية ازدادت رغبتهم في استماع آرائه فقال لهم :

— نعم ان لمولاي اصدقاء — لا صديقاً واحداً — في وزارة الحربية بل في جميع الوزارات . وكلهم مجمعون على ان الحرب في هذه المرة ستكون كجميع الحروب التي خاضتها المانيا فيجدد الجيش الالماني ذكرى معارك سنة ١٨٧٠ — ذكرى « ورت » و « سان بريفه » و « جرافلوت » و « سيدان » وهلم جراً . وسيجري كل ذلك بأسرع من لمح البصر . هذا ما يقوله مولاي وانتم تعلمون مقامه في عالم السياسة . وقد حضر مواقع حرب السبعين كما حضر ابو بطرس مواقع سنة ١٨١٢

قال ذلك وضحك ضحكة الازدراء ولكن بطرس لم يكترث لمقاله بل كرر قوله : — ان الحرب مع روسيا مشكلة عظيمة ولا يمكن ان تختلف اليوم عنها في سنة ١٨١٢

فتضجر كريستيان كثيراً بسبب عناد بطرس وانما تجاوز عنه لكبر سنه قائلاً في نفسه انه معتوه مصاب « بالخرف » ثم واصل ابداء حججه وبراهينه لسامعيه فقال لهم : — ولا تنسوا الجيش النمسوي الذي يمكننا التعويل عليه . والمواصلات الحديدية البديعة النظام وفضلاً عن ذلك تذكروا مناطيدنا المعروفة باسم مناطيد تسبلن

فقال بطرس : — اتعني بها السفن الهوائية التي تعتقد المانيا انها تسود بها العالم ؟

فقال : — هي بعينها

— وما الذي تستطيع ان تفعله من الامور الحربية ؟

— ما الذي تفعله ؟

— نعم ما الذي تفعله ؟

— انها تستطيع ان تنقل جيشاً بجميع مهماته وذخائره الى لندن عن طريق البحر

— وهل تعتقد انت بهذه القصص ؟

— لا شك

— اذاً في استطاعة هذه المناطيد ان تطير الى روسيا ايضاً وتقطع مجاهلها المغطاة بالثلوج

— لا شك

— اما انا فاعتقد ان الحرب مع روسيا مشكلة عظيمة . وستكون سنة ١٩١٤ كسنة ١٨١٢

ولم يكد بطرس يفرغ من عبارته حتى رن صفير القطار . فوثب كريستيان من موضعه وعدا مسرعاً نحو المحطة وكان القطار قد وصل فنزلت منه ميلاني فاستقبلها كريستيان وقادها الى المركبة

الفصل الحادي عشر

ذكرى العهد القديم

خرج البارون فالكنستين لمقابلة ابنته وهو يسير متوكئاً على عكازه لان داء المفاصل كان قد تمكن من احدى ساقيه . ولما استقبلته ابنته رأته قد تغير عما كان عليه لآخر عهدها به فقد اسنَّ سريعاً وابيضت لمته ونقشت حوادث الايام الاخيرة اسطر القلق والذعر على جبهته

وشعرت ميلاني بانها غريبة في منزل والدها مع انها لم تكن قد اجتازت عتبته الا منذ نحو شهرين . وخيل اليها ان هوة عميقة تفصلها عن تلك الايام الهنيئة التي قضتها في ربوع صباها يوم لم يكن لها هم سوى الركض في الحديقة ومطاردة الفراش من زهرة الى زهرة

ولما استقر بها الجلوس في غرفتها دخل عليها والدها وسألها : — هل اتعبك السفر يابنية ؟ فقالت : — لقد أخذت مني المشقة كل المأخذ وزاد تعب الفكر في تعب الجسم

وبعد ان لبث معها هنيهة يحادثها في موضوع سفرها تركها وخرج فدخلت الخادمة نينا لتساعدها على خلع ثيابها فاخذت ميلاني تطارحها الحديث وتسألها عن اصدقاء الزمن القديم والخادمة تروي لها حوادث الشهرين الماضيين . ولما فرغت من حديثها قالت لمولاتها : — عسى ان لا تكون مولاتي قد استصعبت ألم الوداع

فكادت تجيبها بالنفي ولكنها اجابتها بتنفسها الصعداء . فاخذت نينا تقص عليها اخبار اليومين الاخيرين وخوف الناس من ان يغزو الروس بروسيا الشرقية ويرتكبوا فيها الفظائع . وقالت ان خطيبها فيليب قد أمر بالانضمام الى كتيبته المعسكرة في كونجسبرج وانها شديدة القلق عليه اذ لا بد ان يجتاح الروس البلاد ويتدفق سيلهم على تلك المدينة . ولكن ميلاني حاولت ان تزيل مخاوفها وتخفف ما بها من لوعة قائلة لها على غير اعتقاد ان الروس لن يستطيعوا ان يتعدوا حدود البلاد لان الحرس الامبراطوري واقف لهم بالمرصاد وسيرد سيلهم اذا طما . ومع انها كانت تحاول تهدئة روع الوصيفة وتؤكد لها ان الروس لن يستطيعوا ان يغزوا بروسيا الشرقية كانت

تضحك في باطنها ضحكة استهزاء ولا تصدق كلمات فمها بل تعتقد انه ما من قوة تستطيع منع الروس من اجتياح البلاد . وان ما تتبجح به المانيا من جبروتها العسكري لن يمنعها في الحقيقة من الاستسلام الى الاقدار وان الجيش الالماني ليس معصوماً من الخطإ ولا منزهاً عن الانكسار

وظلت الوصيفة نينا تتلو على سيدتها أخبار اليومين الماضيين وقد سرّي ما بها من الروع والقلق على خطيبها بعد ان اكدت لها سيدتها ان مدينة كونجسبرج أمنع من عقاب الجو لانه اذا لم تكن ميلاني زوجة الماجور فون بكرسبرج تعلم حقيقة الحالة الحربية فمن ذا الذي يعلمها ؟

ولما فرغت ميلاني من تبديل ثيابها أخذت تجول في غرف المنزل وتعيد الى الذهن ذكرى أيامها الماضية . وشعرت كأنها الان طليقة من قيود الزوجية التي كانت ترسف بها على الرغم منها منذ شهرين وتذكرت ايضاً ادولف فعرتها قشعريرة باردة ومرت على محياها سحابة القلق ولكنها ما عتمت ان انقشعت فلم تفكر الاّ في الحرية التي رأت نفسها فيها لاول يوم منذ زواجها

وانه لغريب أن تشعر بمثل تلك الطمأنينة مع انها كانت قريبة من موضع الخطر الروسي . ولكن ألم تكن بعيدة عن زوجها وقد ضمنت بُعدها عنه او بُعده عنها ردحاً من الزمن ؟ ألم تكن الحرب قد فصلت بينها وبين ذلك الرجل الذي لم يكن ليدرك أخلاقها ولا عنيت هي بادراك أخلاقه ؟ والاّ فمن أين جاءتها تلك الطمأنينة حالة كون العالم يتمخض بالحوادث الجسام ؟

وبينما هي تفكر في هذه الامور خيل اليها انها تقترف جريمة لمجرد شعورها بتلك الطمأنينة أو لم يكن عقد القران قد جعلها شطراً من زوجها فكيف تشعر في داخلها بالراحة لبعدها عنه وكيف يجوز لها أن تنعم بالاً حالة كونه معرضاً لاشد الاخطار ؟

وانتقل فكرها من ذلك الى التأمل في مسئلتي الحلال والحرام ولكن اي معنى لهذين المبدأين بعد أن نبذت الامم مبادئ العدل وجعلت شعارها « الحق للقوة » ولم تعترف بقانون ولا معاهدة. ولماذا تضطر هي للمحافظة على مبادئ وطئتها الشعوب والدول كلها باقدامها ؟

الفصل الثاني عشر

مدبرة المنزل

نزلت ميلاني الى قاعة المنزل فرأت كل شيء على ما كانت تعهده قبل مفارقتها بيت أبيها . حتى ان القطة السوداء ركضت لاستقبالها حسب العادة واظهرت كل علامة من علامات الترحيب . ثم جاءت المس تانر وهي مدبرة المنزل وقد جاوزت الستين من عمرها وكانت تحب ميلاني حباً جماً لانها ربتها منذ نعومة اظفارها . وكانت هذه الامرأة الامينة عكس مسز هوب على خط مستقيم فكانت تعتني بسيدها وبمنزله عناية ما بعدها زيادة لمستزيد لان ميلاني لم تكن قبل زواجها تبذل اقل جهد في تدبير امور المنزل ولهذا كان البارون شديد التعلق بتلك الامرأة

وبعد أن سلمت على ميلاني ورحبت بها قالت لها : — عسى ان لا تكون مولاتي قد عانت مشاق كثيرة في سفرتها

فاجابتها ميلاني : — أنت تعلمين يا عزيزتي مشاق السفر في الاحوال الحاضرة . وفي الواقع انني لم اسافر في حياتي قط سفرة كهذه ذقت فيها أشد العذاب ولا سيما ان القطار كان يسير بطيئاً ويقف في كل محطة

— ذلك بسبب امر التعبية يا مولاتي فانهم مضطرون ان ينقلوا الجيوش من كل مكان

— لعل هـذا هو السبب . وقد استغرقت سفرتنا من كولون الى برلين اربعاً وعشرين ساعة مع انها لا تستغرق عادة اكثر من ثماني ساعات . ومع ذلك فقد رأيت في خلال الاربع والعشرين ساعة اموراً كثيرة هي بمنزلة دروس مفيدة

— نعم ياسيدتي فان الحوادث التي تجري الان هي درس لكل امرئ . والظاهر ان العالم يتمخض بانقلابات عظيمة ما عدا عندنا في فالكنستين اذ يلوح لي ان العالم لا يزال كما كان

— ليت الحقيقة كما تقولين يامس تانر . ولقد كان هذا اول فكر خطر ببالي عند مادنا القطار من محطة فالكنستين فلاح لي ان كل شيء هو على ما كان عليه ولكن . .

— ولكن . . .

— ولكن اذا التفتنا من الظواهر الى البواطن رأينا ان العالم يتمخض باعظم انقلاب شهده التاريخ . والبشرية تتعذب الآن عذابات الطلق لتلد نظاماً جديداً للكون

— أذلك لان الجنود تنقل الان بسرعة من جهة الى جهة ؟

— كلا يا مس تانر . فان نقل الجيوش من ميدان الى ميدان انما هو رمز الى القوة البهيمية التي يقدسها البعض ويجعلها فوق كل مظهر آخر من مظاهر الطبيعة ولكن هنالك ما هو أهم من نقل الجيوش وما هو أبعد من ذلك مغزى

— وماذا عسى ان تعني سيدتي ؟

— اعني ان هذه الحرب انما هي مظهر من مظاهر الجهاد بين مبدأي الاستقلال والعبودية

— اجل . ولهذا اقدمت المانيا على هذه الحرب لانها تطلب ان تعيش حرة غير مستعبدة

فابتسمت ميلاني وقالت :

— هذا ما يحاولون ان يجعلونا نعتقده ولكن الحقيقة غير ذلك يا مس تانر

فحملقت مس تانر في وجهها وقالت :

— ربما تكون مولاتي مصيبة ولكنني اعلم ان المانيا معتدى عليها في هذه الحرب

— لاتصدقي هذه الاقوال ياعزيزتي فانني واثقة كل الثقة بان هذه الحرب هي ثورة البشرية على النظام القديم وان يكن الذين يسلمون بهذا الاعتقاد قليلين جداً

— انني لست ادرك ما تقولين يا مولاتي

— لا بدع اذا لم تدركيه فان قليلين هم الذين يدركون الحقيقة في هذه الايام ولكن سيأتي يوم تسقط فيه القشور عن عيون الجميع فتمثل لهم الحقيقة ناصعة ويقودهم الزمان الى الغاية النهائية سواء ارادوا او لم يريدوا

— وما هي تلك الغاية يا سيدتي ؟

— لا اعلم . ولكنني اعلم باننا لا بد ان ننتهي اليها عن طريق الاحزان

فصمتت الخادمة قليلاً . ثم غيرت موضوع الحديث فقالت :

— هل تود سيدتي صنفاً خصوصياً من الطعام للعشاء

— كلا يا مس تانر . اية ساعة يكون العشاء ؟

— حسب العادة ألا تعلمين ان سيدي والدك شديد الحرص على مواعيد الاكل

— نعم وانما كنت قد نسيت . والان دعيني استريح قليلا يا مس تانر

فودعتها مس تانر وخرجت . فاستغرقت ميلاني في بحار الافكار وعادت فتذكرت ماضيها من اوله الى الدقيقة التي كانت فيها . وتمثلت لها مشاهد لوزان والالب و باريس والرين وزوجها — وفوق الكل تمثل لها ادولف ، ادولف العزيز الذي لم تكن صورته لتبرح من افكارها وقد كانت تجد في مجرد التفكر فيه لذة وعزاء . أو لم يكن هو معنى حياتها وهنائها ؟ أو لم تكن ذكرى احلامها الماضية تكفي لانشاء نشوة الطرب والسرور في داخلها ؟

نعم . لقد كان ادولف لها الكل في الكل

الكتاب الثاني

العالم السفلي

الفصل الاول

صرح مونميروار

على قمة هضبة من الهضاب المشرفة على نهر الموز بجوار ارمنتيار صرح شهير يعرف بصرح مونميروار هو آية في جمال الهندسة وزخرف البناء وقد بني على الطرز المعروف بطرز لويس الخامس عشر حتى ان حديقته توهم الناظر انه في حدائق عهد ذلك الملك وجنائنه . فقد كثرت فيها التماثيل الرخامية على جانبي كل ممر من ممارها . فمنها تمثال ديانا الهة الصيد وبيدها قوس وهي تطارد ايلا . ومنها تمثال ابولون ينقر على اوتار قيثارته . ومنها تمثال مركور حاملا الطفل باخوس على ذراعيه . ومنها تماثيل جونو وجوبيتير وغيرهما من آلهة الشعوب المندثرة تتخلل تلك الحديقة وتزين ممارها الظليلة

وقد كان صرح مونميروار ملكاً للمركيز دارمنتيار ولكنه هجره في اليوم الذي نشبت فيه الحرب وذهب الى صرح آخر له في موضع اقرب الى الامن والسلام ويدعى «صرح بوليو» ثم انتقل منه الى صرح «كاستل نوفو» المطل على البحر المتوسط حيث عزم على الاقامة الى ان تضع الحرب اوزارها

وكان قد ابقى في مونميروار خادمه العجوز الامين واسمه لابيش ليحرسه في اثناء غيابه وكانت الشمس لا تزال تشرق على هذا الصرح بعد غياب صاحبه حسب العادة وتماثيل الحديقة لا تزل واقفة في اماكنها مع ان المدفع كان يقصف في ترويون المجاورة منذ عهد . وعثير الحرب يشاهد بالعين المجردة

وكانت معركة هائلة تجري بقرب مونميروار منذ بضعة ايام والامر فيها سجال بين الفريقين فلا يستطيع احدهما التقدم شبراً لان القوتين متكافئتان كأنهما كفتا ميزان . والهواء يضج بدوي القنابل وهزيم المدافع وصليل الاسنة وصهيل الخيول وازيز الطيارات كأن الابالسة قد اطلقت من قيودها

وكان لابيش قد اعتاد سماع تلك الاصوات الجهنمية فلم يكن ليذعر منها كما كان يذعر لاول مرة عندما بدأت المعركة . وكان في الايام الاخيرة قد لزم الصمت وصار قليل الكلام كثير التأمل ولا سيما بعد ان قتل الالمان بعض الذين ارتابوا في امرهم من اهالي القرى المجاورة

وكان السكوت مخيما على صرح مونميروار بعد ذهاب المركيز حتى انتقل الصرح الى حيازة الالمان فدخله بعض ضباطهم واتخذوه مقراً لهم . وكان كبيرهم ضابطاً برتبة كولونيل واسمه فون ترومان وله خادم برتبة شاويش يدعى ولف

ففي ذات يوم لعهد روايتنا بينما لابيش جالس مع زوجته في مطبخ القصر اذا بالجرس يقرع . فقال لزوجته : انه « البوش »

والبوش عندهم لقب للالمان ومعناه « الهمج »

وكان الالمان قد استبقوه في القصر بمنزلة خادم لهم فكان يجلس في المطبخ ليل نهار منتظراً أوامرهم

ولما سمع قرع الجرس اسرع صاعداً الى فوق حيث رأى طائفة من الضباط واقفين في الردهة الكبرى وقد علت الاوحال احذيتهم ومع ذلك كانوا يسيرون في تلك الردهة المكسوة بأثمن الطنافس العجمية جيئة وذهاباً . وفي الواقع ان ردهة ذلك الصرح كانت فخر القصور وعنوان المجد والعظمة . ولكم شهدت الحفلات الكبيرة وغصت بارقى الناس درجة ولكن الحرب جعلتها مباءة لجنود « البوش » وضباطهم

ونظر لابيش الامين الى ذلك المشهد فاذكره الاعياد والولائم الفاخرة التي كان مولاه يقيمها هنالك من آنٍ الى آن . وقد كاد الدمع يطفر من عينيه بسبب صيرورة ذلك الصرح المجيد الى ما صار اليه . ولكن الحرب حرب — وما زال الحق في هذا العالم للقوة فما الذي يستطيع أن يفعله سوى الطاعة والخضوع ما دام عدوه صاحب القوة . حقاً انه لم يكن ليستطيع ان يفعل شيئاً بل كان لا بد له ان يتحمل كل شيء بصبر حتى غلاظة ذلك الشاويش ولف الى أن يقضي الله مقدراً

ولما دخل الردهة وجد « ولف » جالساً الى منضدة « الماهوغني » فسأله هل هو الذي قرع الجرس فقال اجل فقال :— وما ذا عسى أن يريد حضرة الشاويش قال : هات لي فنجان قهوة

قال : — سمعاً وطاعة يا مولاي

ولفظ كلمة مولاي « بالفرنسوية » فثار حنق الشاويش وقال له : — مابالك تهذي بهذه اللغة التي لا نفهمها ؟

فكرر لايش عبارته متحاشياً اللغة الالمانية ثم انصرف ليأتي بالقهوة

وبينما هو خارج قرعت الساعة السابعة . فتذكر ان عليه أن يقرع باب الغرفة التي ينام فيها الكولونيل ترومان لايقاظه من نومه . فذهب وايقظه بلطف ثم ذهب لاعداد القهوة حسب طلب الشاويش . وبعد بضع دقائق عاد بها ومعه الفناجين الفضية الخاصة بالقصر ووضعها امام الشاويش

فقال له هذا : — ذقها اولاً

فقال لايش : — ماذا ؟

— ذقها اولاً

— انني لا افهم ما تقوله

— اقول لك ذق القهوة اولاً

— ولماذا ؟

— لاننا لا نأمن غدر اعدائنا

فادرك لايش مراده فتناول قليلاً من القهوة وشربها فقال له ولف : — كفى

فقال لايش : — وهل تطلب يا حضرة الشاويش امراً آخر ؟

— أريد ان آكل

— ماذا يريد سيدي ؟

— هل عندك قليل من . . . من . .

— من الجامبون ؟

— نعم من الجامبون . هل عندكم ؟

— نعم يا سيدي

— اذاً احضر لي ما تستطيع احضاره منه وحذار أن تكون بخيلا

— وهل يريد حضرة الشاويش خبزاً ؟

— وخبزاً ايضاً

— وماذا اهيئ لحضرة الكولونيل ؟
— فراخاً وما اشبه . اسرع
وما هي الاَّ بضع دقائق حتى هيأ لايش كل شيء حسب الطلب

الفصل الثاني

المغتصب

واذ ذاك طفق ولف يلتهم الطعام بشراهة ولايش واقف على خدمته . فلما فرغ من شرب القهوة مسح شاربيه بظهر يده . ثم التفت الى لايش يطارحه الحديث بالالمانية فقال له :

— منذ كم من الزمن هرب سيدك من هذا الصرح ؟
— لست افهم ما تقوله يا مولاي
— أولم تتعلم الالمانية بعد مع اننا في بلادكم منذ زمن هذا مقداره ؟
— كلا لم اتعلمها بعد مع انني كنت في المانيا غير مرة
— في المانيا ؟
— نعم في المانيا
— وماذا كنت تفعل هنالك ؟
— كنت اذهب بصحبة مولاي المركيز
— واين كنتم تقصدون ؟
— ويز بادن أو بادن بادن أو غيرها من مدن الحمامات الشهيرة
— أكان سيدك يقصد الاستشفاء ؟
— نعم يا سيدي . كان يقصد الاستشفاء من داء المفاصل

واذ ذاك قصفت المدافع في ترويون فكاد الصرح يهتز من أساساته فتوقف ولف قليلاً ثم استأنف حديثه فقال :

ولكن كيف أمكنه أن يهرب وهو مصاب بداء المفاصل ؟

فسكت لايش هنيهة ثم قال : — انه اعتاد هذا الداء منذ عهد طويل

ثم قصفت المدافع قصفاً أشد . فقال ولف للشيخ لايش : — هل سمعت ؟ انها المدافع الالمانية التي اذا نطقت أسكتت الكل . انها من صنع كروب

ولم يكد ولف يكمل عبارته حتى سمع وقع اقدام واذا الكابتن ادولف قادم . فنهض مسرعاً ليحيه فقال له الكابتن : — مكانك ! هل استيقظ الكولونل ؟

— نعم يا مولاي . استيقظ منذ ربع ساعة

— واين هو الان ؟

— في الحمام يا سيدي

— هل اصدر اوامر لاركان حربه بالمجيء الى هنا في الساعة السابعة ؟

— نعم يا سيدي

— اذاً خذ هذا التقرير وقدمه الى الكولونيل

— سمعاً وطاعة يا سيدي

— وقل له انني مرابط في ڤيتري مع الاورطة الثانية . هل فهمت ؟

— فهمت يا سيدي

— في ڤيتري

— في ڤيتري

وكان لايش مراقباً هذا المشهد وقد رأى من خضوع الشاويش وذله ما لم يكن ليتفق مع اللهجة التي كان يستعملها الشاويش في مخاطبته

واستأنف الكابتن ادولف كلامه فقال للشاويش

— قل للكولونيل ان هذا التقرير ألقاه أحد الطيارين فوجده احد رجال اورطتي وقد جلبته بنفسي لما أعتقده فيه من الشأن العظيم . قل ذلك للكولونيل

— سمعاً وطاعة يا مولاي

— ولا تنس ان تقول له انني مرابط في ڤيتري

— سأقول له ذلك يا سيدي

وأخذ الكابتن أدولف يجيل طرفه حوله ويتأمل في ذلك الصرح الجميل وما فيه من الصور والنقوش البديعة . وقد كان من عشاق الفنون الجميلة المولعين بكل ما يدل على ذوق سليم . وحانت منه التفاتة فابصر خزانة بديعة الصنع فتمتم في نفسه قائلا :

انها من صناعة أهل جنوى منذ القرن السادس عشر

— ما الذي يقوله مولاي ؟

— لست موجهاً الكلام اليك يا ولف

وفي الواقع ان الكابتن ادولف ظل يتمم لنفسه لشدة اعجابه بما شاهده من دلائل حسن الذوق واتقان الفن . ثم تقدم الى الخزانة وفتحها فرأى داخلها رسماً بديعاً يمثل رجلاً يوقع على الكمنجة وسيدة ترقص على نغمات ذلك الايقاع . فاطرب به ذلك الرسم حتى صار يترنح اعجاباً ولم يتذكر انه شاهد مثله أو ما يدانيه في بداعة الرسم في متاحف اوربا كلها لان أمثال ذلك الرسم انما هي فلتات من فلتات الطبيعة التي لا تتكرر الا نادراً

وبعد ان شبع من النظر الى ذلك الرسم تذكر انه مضطر الى العودة الى ڤيتري لاصدار أوامر ذلك النهار . فهمّ بالخروج وقال للشاويش ولف :

— أفهمت ما اوصيتك به ؟

— نعم يا سيدي

ولما وصل الى خارج القصر امتطى جواده وأطلق عنانه للريح

وشعر الشاويش كأن حجراً ثقيلاً قد أزيح عن صدره فالتفت الى الطعام الموضوع على المائدة لاجل الكولونيل ففحصه لآخر مرة فوجد كل شيء حسناً

وكانت جميع الصحون والملاعق موسومة بسمة آل المركيز الذين كان لا يزال شعارهم كما كان منذ ايام شارل السابع مع كثرة الانقلابات السياسية التي طرأت على فرنسا

ولكن ما عسى أن يعلم الشاويش ولف عن تاريخ تلك السمة أو ذلك الشعار وهو رجل لم يكن ليهمه لولا الحرب سوى عمله اليومي الذي يرتزق منه

وبعد بضع دقائق ناداه الكولونيل وسأله هل وصلت انباء جديدة ؟ فقال :

— نعم يا مولاي . ثم اسرع وأحضر تقرير الكابتن أدولف قائلاً :

— لقد جاء بهذا التقرير الكابتن أدولف الضابط بالاورطة الثامنة

— هل جاء به بنفسه ؟

— نعم يا سيدي . جاء به بنفسه

— هل قال شيئاً ؟

— لم يقل شيئاً سوى ان طياراً التى بهذا التقرير فاسرع وجاء به

قال ذلك وناوله التقرير فاخذه الكولونيل ثم جلس الى المائدة ليتناول طعام الفطور وفض غلاف التقرير وأخذ يقرأه وهو يحسو الشاي . ولما جاء على آخره ضرب المائدة بيده وقال متمتماً لنفسه : « اذاً هذا يغير الحالة بكليتها ! » فنظر اليه الشاويش ولف مذعوراً فرأى ملامحه قد تغيرت وسمعه يقول: « اذا كان هذا التقرير صحيحاً . . . ولكن اذا كان خدعة . . . »

ثم التفت الى ولف وقال له :

— كنت قد أصدرت الاوامر الى ضباط اركان الحرب بالمجيء الى هنا في الساعة السابعة تماماً أليس كذلك يا ولف ؟

— نعم يا سيدي . امرتهم بالحضور في الساعة السابعة تماماً

— وكم الساعة الان ؟

— الساعة السابعة الا ثلاث دقائق

— اذاً لا بد لهم من الحضور

ثم صغى قليلا وقال — : ها قد اتوا فانني اسمع وقع اقدامهم

الفصل الثالث

التقرير

ما كادت الساعة تقرع السابعة حتى دخل ضباط اركان الحرب واحداً واحداً بنظام دقيق لا تجده الا في الجيش البروسي وقد دخلوا بحسب ترتيب درجاتهم يتقدمهم الماجور فون بكرسبرج ثم وقفوا جميعاً أمام الكولونيل فادوا التحية العسكرية بنظام ميكانيكي اشبه بنظام عدة الساعة . فرد الكولونيل تحيتهم قائلاً : — اسعد الله صباحكم ايها السادة . عسى ان تكونوا قد نمتم بهدوء في الليلة البارحة . فقالوا لقد نمنا هنيئاً ايها الكولونيل . ثم امرهم بالجلوس فجلسوا وأذن لهم في التدخين لان القانون العسكري يحظر على الضابط ان يدخن في حضور ضابط أرقى منه رتبة . وتناول الكولونيل

لفافة تبغ من صنع هفانا فاسرع الضباط كلهم لاشعالها ثم تناول بعضهم لفائف واشعلوها فما هي الا لحظة حتى عقد من دخان التبغ سرادق في تلك القاعة الجميلة التي لم يكن المركيز ارمنتيار يسمح لاحد ان يدخن فيها لفافة ولو رأى لايش ذلك الامر لاحزنه وأطلق الدمع من عينيه ولكنه كان لا يزال في المطبخ مع زوجته

وبدأ الكولونيل حديثه مع الضباط اركان الحرب فقال لهم :— ان الحالة قد تغيرت بكليتها ايها السادة . وبناء عليه فان الخطة التي رسمناها بالامس لم تعد تجدي نفعاً

فرمقه الجميع بنظرات الدهشة والاستغراب . وادرك الكولونيل سبب دهشتهم فقال لهم مكرراً :— نعم لقد تغيرت الحالة بالكلية فان الكابتن ادولف من الاورطة الثامنة جاءني بهذا التقرير

فصاح الماجور فون بكر سبرج :— ادولف ؟

فقال الكولونيل :— نعم الكابتن ادولف

— الضابط بالاورطة الثامنة ؟

— الضابط بالاورطة الثامنة

— ولكنه مرابط مع اورطته في ڤيتري

— هو بعينه

— وكيف تمكن من العثور على هذا التقرير وهو في الخطوط الامامية ؟ لا شك ان طياراً رمى بالتقرير

— هو كما تقول ياحضرة الماجور

وعقب ذلك سكوت قصير . ثم استأنف الكولونيل كلامه فقال :

— ان هذا التقرير على جانب عظيم من الاهمية يا سادة اذ يقول ان قوات كبيرة من جيوش الاعداء — لم يذكر عددها — قد شوهدت متجهة نحو الغابة التي وراء ترويون . وأنتم تعلمون ان الواجب يقضي علينا بان نعوق سير العدو بقدر امكاننا حتى تتمكن ميسرتنا من اكتناف الغابة بتمامها . وتعلمون أيضاً ان « آلاينا » هو القوة الاحتياطية الوحيدة الباقية لاجل هذا الغرض لان ما بقي من الفيلق مشغول بالقتال

— هو كذلك

— فخطتنا اذاً صريحة لا تحتاج الى جدال ولكنها محفوفة باشد الاخطار

واذ ذاك سرت قشعريرة في بعض الضباط ولا سيما في « ملازم » منهم يدعى هامان وكان عند نشوب الحرب في الاسبوع الاول من شهر العسل ففارق زوجته بعد ثمانية ايام من عقد زواجه . ولهذا كان لقول الكولونيل وقع شديد في مسامعه ولا سيما قوله ان خطتهم محفوفة باشد الاخطار

وواصل الكولونيل كلامه فقال :

— لم يبق لنا مناص من اكتناف الغابة وتأخير العدو بقدر الامكان

فقال فون بكرسبرج :— هو كما تقول يا سيدي

فقال الكولونيل— : ولا بد من التدرع بالخديعة لايهام العدو ومخاتلته الى ان يتم كتناف الغابة

— وبماذا نخدعه ؟

— بان الغابة محصنة تحصيناً عظيما وان فيها جيشاً كبيراً مستعداً للدفاع عنها اشد دفاع

— اذن ؟

— اذن لا بد لنا من الثبات مهما تكن قوة العدو . فاذا فنيت اورطة فلا بد للاخرى من التقدم للحلول محلها

ثم توقف الكولونيل قليلاً مفكراً في ما يقوله فقال : — لقد تبيد الاورطة الاولى على بكرة ابيها ايها السادة فـ . . .

ثم توقف ثانية . فقاطعه الماجور فون بكرسبرج قائلاً : — انني التمس ان يؤذن لي في التقدم باورطتي اولاً

فتبسم الكولونيل مظهراً علامات الارتياح وكأن حملاً ثقيلاً ازيح عن عاتقه اذ لم يكن من السهل عليه تعيين الاورطة التي تتقدم غيرها فكفاه الماجور فون بكرسبرج مؤونة ذلك فقال الكولونيل :

— انني مجيبك الى طلبك ايها الماجور . فالاورطة الثانية تتقدم غيرها . ولا ريب عندي في ان الاورطة الاولى والثالثة لن تقابلا الموت بشجاعة اقل من شجاعة

الاورطة الثانية . وعلى كل فان الاولى تلي الثانية ثم تليها الثالثة . هل الخطة صريحة ؟

— كل الصراحة

— اذاً لنهتف ثلاثاً لجلالته

فهتف الجميع ثلاثاً وهم رابطو الجأش ما عدا الضابط هامان فانه كان لا يزال يفكر في عروسه وما عسى ان يحل بها لو قتل . ثم تذكر آخر رسالة تلقاها منها وآخر جواب بعث به اليها

ولما فرغوا من الهتاف نهض الكولونيل فنهض الجميع وصافح بعضهم بعضاً ثم نادى الكولونيل الشاويش ولف وامره ان يحضر حصانه ثم ركبه وانصرف تاركاً الضباط اركان الحرب وراءه

فلما خلا هؤلاء بانفسهم قال الماجور بكرسبرج ان التقارير التي يلقي بها بعض الطيارين كثيراً ما تكون مجرد خدعة . وبناء عليه فما قيل عن زحف القوات الكبيرة من العدو نحو الغابة التي وراء ترويون قد يكون مجرد خديعة من العدو . فهدأ هذا الكلام روع بعضهم وصاروا يتمنون لو يصدق كلام الماجور . ورأى الضابط هامان أن يجلس ويكتب الى عروسه قبل كل شيء . وجلس الآخرون ايضاً يكتبون الى اهلهم ما عدا الماجور فون بكرسبرج فانه لم يشعر بميل الى الكتابة مع انه كان قد تلقى في امس ذلك اليوم رسالة مسهبة من زوجته بفالكنستين

والتفت الى ضابط آخر من الذين معه وسأله :

— أليس لك قريب او نسيب تكتب اليه قبل الشروع في تنفيذ خطتنا ؟

فقال : — كلا يا حضرة الماجور

فقال : — اذاً أنت مثلي

— ولكن لك اهلاً واقرباء

— نعم ولكني لا اشعر بميل الى الكتابة الآن

ولما فرغ الضباط من كتابة رسائلهم خرجوا واحداً واحداً ما عدا فون بكرسبرج فانه لبث في مكانه يتأمل

الفصل الرابع

وادي الموز

تناول الماجور فون بكرسبرج منظاره الحربي ووقف بالنافذة ينظر الى وادي الموز فرأى مشهداً يأخذ بمجامع الالباب ولكنه لم يكترث له لانه لم يكن واقفاً هناك وقفة شاعر او مصور بل وقفة جندي محارب . وكان يفحص حصون ترويون والمدافع الضخمة تضربها ضرباً هائلاً وتعمل على دكها كما دكت حصون لياج ونامور من قبلها . ولا يخفى ان ثمن قنبلة واحدة من قنابل هذه المدافع الف وستمائة جنيه وهي اشبه بصاعقة في فعلها الهائل وفتكها الذريع . حتى ان زجاج النوافذ يتحطم من عنفها على بعد عدة اميال . ولا يطلق الجنود بضع طلقات حتى يصابوا بالصمم

وظل الماجور فون بكرسبرج يراقب الافق بمنظاره ويفكر في فعل المدافع الذريع وهو يسمع قصفها الشبيه بهزيم الرعود . وكان يراقب على الخصوص ميسرة ترويون . وما هي الا هنيهة حتى اصابتها قنبلة مدفع كبير واشعلت فيها النيران . فطرب الماجور لتلك الضربة ولكنه ما عتم ان رأى لسان اللهيب مندلعاً فانقلب طربه الى روع وقال في نفسه لقد شبت النار في ترويون . وشعر بقشعريرة باردة من جراء ذلك المشهد الفظيع . ولسبب لم يعلمه وضع يده في جيبه ثم اخرج منه رسالة زوجته الاخيرة فقال في نفسه انها تطلب مني ان أهدي تحيتها الى ادولف . . . ادولف الذي لا يبرح من امام مخيلتها . . . ادولف الشاغل كل قوى افكارها . . . ولكن . . .

وشعر كأن دافعاً قوياً يدفعه على تمزيق تلك الرسالة ولكنه توقف ولم يفعل ثم اعاد الرسالة الى جيبه وعاد يتمتم لنفسه :

انها ترسل تحيتها اليه . وما ادراني انها لم تكتب اليه رسالة سراً وانها تطلب مني أن ابلغه تحيتها وهي تقصد تضليلي

وشعر بعقارب الغيرة تدب في جسمه فعزم أن يبحث عند سعاة البريد العسكري ليعلم هل تلقى الكابتن ادولف رسالة من فالكنستين . فان كان قد تلقى فان اورطة ادولف هي تحت مطلق تصرفه ولا بد ان يبعث بها الى حتفها . . لقد حانت الفرصة السانحة للنجاة من ذلك المناس

ثم قرع جرساً كهربائياً فاقبل لابيش مسرعاً وسأله بالفرنسوية :

— هل قرع مولاي الجرس ؟

فاجابه بكرسبرج بالفرنسوية : — نعم قرعته

— وماذا يأمر سيدي ؟

— هل لديكم شمبانيا ؟

— نعم يا مولاي

— هات زجاجة

فاسرع لابيش ليأتي بالزجاجة وعاد فون بكرسبرج يراقب ترويون بمنظاره وهي تشتعل فابتسم ابتسامة الظافر كأنه هو مخترع المدافع الضخمة . وبينما هو يفكر اقبل لابيش يحمل زجاجة من الشمبانيا المعتقة وقدحاً فوضعهما امام الماجور فون بكرسبرج وحاول الخروج فوقفه الماجور واعطاه قطعة من النقود تعادل خمسة فرنكات وقال له :

— خذ هذه النقود فانني اريد ان ادفع نقداً ثمن كل شيء اشتريه

وما كاد يفرغ من عبارته حتى سمع وقع اقدام ودخل الكابتن ادولف . فحياه فرد عليه التحية . ومع تفاوتهما في الرتبة كانا شديدي الالفة في الحديث . قال ادولف :

— بحثت عنك كثيراً الى ان وجدتك

فقاطعه الماجور قائلاً : — هل لك في كأس من الشمبانيا ؟

— كلا . اشكرك

— ان هنا صنفاً من احسن اصناف الشمبانيا

— ليس لي رغبة في الشرب الآن

ففكر الماجور قليلاً وتساءل في نفسه : ترى هل تلقى ادولف كتاباً من ميلاني ؟ ثم تذكر انه (اي ادولف) من غواة الشعر وسائر الفنون الجميلة ولهذا كان كثير التأمل في ذلك اليوم

وحانت من الماجور لفتة فرأى ترويون تلتهب فقال له :— انظر ! أترى اللهيب يتصاعد ؟

فالتفت ادولف واذا بالريح تزيد في وهيج النار . فلم يستطع ان يصرف نظره عن ذلك المنظر الراعب . فقال له الماجور :— ان جنودنا فعلوا بترويين ما تعجز عنه الجبابرة

فسكت ادولف وحاول ان يغير مجرى الحديث فقال :— ما اجمل هذا الصرح الجميل في وسط هذه الحديقة الغناء

فقال الماجور :— أجئت الى هنا لتقول لي هذا الكلام ام جئت لغرض آخر ؟

— بل جئت لغرض آخر

— هل علمت انني تلقيت رسالة من ميلاني ؟

— نعم ولهذا جئت اسألك عنها . كيف حالها الان ؟

— هي في احسن حال . ولماذا لا تكون كذلك ؟

فبغت ادولف من تلك اللهجة وقال في نفسه : ترى ما الذي يجول في فكره ؟ ثم قال : — انك تتكلم بلهجة غريبة يا بكرسبرج

— أصحيح ؟

— نعم . أترى في سؤالي عن صحة ميلاني امراً غريباً ؟

— كلا فانك تعلم انني كنت ولا ازال احسبك كاحد اعضاء اسرتنا ولم اخفِ عنك قط سراً من اسرارنا البيتية . خذ اقرأ رسالة ميلاني

قال ذلك وناوله الرسالة فاخذها وقرأها بسرعة ولما فرغ منها اعادها الى بكرسبرج وقال له :— ومن هي مرغريت زول هذه التي تذكرها في رسالتها ؟

— هي فتاة هولندية حسناء اقامت في فرنسا مدة من الزمن وتعرفت برهط من كبار ساسة الفرنسيس وساعدها جمالها الفتان على الوصول الى أسمى المقامات العالية. وقد أخذت على عاتقها ان تذهب الى باريس لاغراض تتعلق بالجاسوسية لانها الآن في خدمة قلم « السياسة السرية » الالمانية

— وما علاقتها بحميك ؟

— ان لحميّ صلة ببعض رجال السياسة في باريس من المعروفين بميلهم الى عقد الصلح مع المانيا وقد جاءته مرغريت زول بكتاب توصية من وزارة الخارجية الالمانية ليزودها بكتاب توصية الى بعض اصدقائه في باريس

— وهل تظن ان في امكانها ان تقوم بعمل كبير ؟

— أظنها تستطيع ذلك فان خدماتها السابقة قد كانت عظيمة النفع لنا

— خدماتها السابقة ؟

— نعم فانها وان لم تكن المانية الا انها متفانية في خدمتنا ونحن مدينون لها بمعلومات حربية كبيرة الشأن

— وكيف ذلك ؟

— الامر بسيط . انك تعلم شدة اعتمادنا على نظام التجسس المتقن . ولو أردت ان أشرح لك أعمال الجواسيس وما يؤدونه لنا من الخدمات الجليلة لادهشك الامر وانما اقول لك ان النظام المذكور يدار بكل عناية ودقة من عدة مراكز مختلفة أهمها برن عاصمة سويسرا

— قد سمعت كثيراً عن هذا النظام ولكنني كنت دائماً انظر اليه بعين الاحتقار لاعتقادي ان السياسة الصريحة أشد انطباقاً على مبادىء الشرف من السياسة السرية . وعلى كل حال فانني اعتقد انه ليس خفي الا ويظهر . وان كل جاسوس آخرته السجن أو الموت فهو يقامر بحياته في سبيل ربح بعض الدراهم

— دعنا من هذه الافكار التي لا تقنع الا الشعراء والوعاظ وتذكر انك ستموت اليوم

قال ذلك بلهجة غريبة كأنه تعمد مباغتة ادولف . ولكن ادولف ظل رابط الجأش وقال له : — انني مستعد للموت !

فنظر اليه الماجور نظرة فاحص مدقق كأنه يفحص مجرماً واقفاً أمامه . وعلم ادولف مغزى تلك النظرة فقابلها بابتسامة . فقال بكرسبرج لنفسه : — لو ان هذا الشخص كان كافاً بميلاني لذعر من كلامي . ترى هل هو يمثل دوراً أم هو من الذين لا يكترثون لشيء في هذا العالم ؟

ثم توقف هنيهة وأعاد على مسمع ادولف قوله : — انك ستموت اليوم

فقال ادولف : — لقد سمعت وعلمت . انني مستعد للموت ولكل امرىء اجل هو ملاقيه عاجلا كان أو آجلاً . فكم بالحري من هو عائش مثلنا بين السيف والنار ؟ ولا سيما في هذه الحرب

— وهل تختلف هذه الحرب عن غيرها من الحروب ؟

— كل الاختلاف

— بأي معنى ؟

— بمعانٍ كثيرة أهمها ان العبرة فيها بالعدد لا بالشجاعة والذكاء

— أتعتقد ذلك ؟

— نعم . وفي الواقع اننا أشبه بالبيادق في رقعة الشطرنج فان الاولى منها تفني بعضها بعضاً ولا تظهر النتيجة الا بعد ان تنفذ معظم البيادق ويبقى منها القليل

— أهذا اعتقادك في الحرب ؟

— أجل فان الذي ينتصر هو الفريق الذي يفوق خصمه في عدد البيادق الاحتياطية

— أو تظن ان الذكاء والصفات الحربية لا تجدي نفعاً ؟

— ان هذه الحرب هي حرب عدَدٍ وعدد والمدفع لا يهاب بطلا بل يلتهمه كما يلتهم الصعلوك . وكل ما في الامر هو العدد الذي يستطيع كل فريق ان يضحي به لاحراز النصر . ومن قال بان الصفات الحربية تستطيع التغلب على آلات الهلاك والتدمير الحديثة فقد خرج عن جادة المعقول

ففكر بكرسبرج في هذا الكلام هنيهة ثم قال :

— ربما كان في كلامك بعض الصحة ولكن تذكر اننا جميعنا بيادق في يد الذين يلعبون هذا الدور الهائل فليس لنا ان نعارض أو ننتقد بل علينا ان نمتثل لكل حركة نؤمر بها

فقال ادولف : — لست انتقد ولا اعارض . وانما أقول ما اعتقده حقيقة لاجدال فيها . وماهذه الحرب سوى مجازفة مقامر لا مسوغ لها . وعلى كل فانني مستعد كما قلت ان أموت . أليس ذلك ما تريده مني ؟

— نعم فان التقرير . . .

وتوقف هنيهة كأنه يفكر في ما يقوله فقال ادولف :

— التقرير الذي أحضرته ؟

— نعم فقد جاء فيه ان قوات كبيرة من جنود الاعداء قد شوهدت زاحفة وراء غابة ترويون . فيتحتم على الاينياء والحالة هذه ان يحتل الغابة الى ان تتم ميسرتنا تطويق حصن ترويون مهما كلفنا ذلك . هذه هي أوامر الكولونيل . هل فهمت ؟

— كل الفهم

— وقد التمست من الكولونيل ان يأذن للاورطة الثانية في القيام بمهمة احتلال الغابة

— حسناً فعلت ولو كنت موضعك ما تأخرت عن طلب ما طلبت . اذ أي فرق في موعد الساعة مادام الكل ذاهبين الى المجزرة عاجلا أو آجلا ؟

— مهما يكن رأيك الخصوصي فان على اورطتنا ان تثبت في الدفاع عن الغابة الى آخر رجل وسنسير لاحتلالها بلوكاً بلوكاً لنخدع العدو بان عددنا كبير جداً . ومتى بادت اورطة حلت الاخرى محلها الى ان يتم لميسرتنا ما تريد . هل فهمت ؟

— كل الفهم . انني مستعد

فحدجه بكرسبرج بنظرة أخرى لعله يدرك ما في أعماق صدره فلم يستطع ادراك شيء . وشعر لاول وهلة بشيء من الفرح لتوقعه قرب موت غريمه ومزاحمه على حب زوجته

ثم توقف هنيهة . وقبل ان يفوه بكلمة حضر ضباط الاورطة الثانية المعدة للمجزرة

الفصل الخامس

غابة ترويون

كان أقدم ضباط هذه الاورطة الكابتن برنرت وقد ترك وراءه زوجة مريضة واربعة اولاد . ويليه اللفتنانت مولر الذي لم يكن يكترث لشيء في الدنيا اذ كان وحيداً لا قريب له ولا نسيب . ويليه لاشمان وهو رجل طويل القامة نحيفها

فلما مثل هؤلاء الثلاثة أمام بكرسبرج أمرهم بالجلوس فجلسوا وبقي ادولف واقفاً بقرب النافذة يراقب ترويون تشتعل

فقال بكرسبرج : — لقد تلقيت من الكولونيل الاوامر الآتية : ان الكابتن ادولف قد أحضر تقريراً من أحد الطيارين يحملنا على تغيير خططنا

فنظر الضباط بعضهم الى بعض كأنهم يستفهمون معنى ذلك . فقال بكرسبرج :

— وقد امر الكولونيل بناء على ذلك ان نحتل غابة ترويون التي قد شوهد وراءها جيش كبير للاعداء . والغرض من احتلالها ان تمكن ميسرتنا من تطويق

حصن ترويون . وقد التمست من الكولونيل ان يأذن لنا في الحصول على شرف احتلال الغابة لعلمي بان جميعكم مستعدون لبذل دمائكم في سبيل مصلحة الوطن

فقالوا جميعاً بصوت واحد : — لا ريب في ذلك يا حضرة الماجور

فقال بكرسبرج : — وقد امر الكولونيل ان تتقدم « بلوكاً بلوكاً » وان ندافع عن الغابة حتى الرمق الاخير . وكلما بادت اورطة حلت اخرى محلها

ثم توقف هنيهة . فنظر اليه الكابتن ادولف كأنه يشجعه على الاستمرار في الكلام فقال :

— وسيبدأ « البلوك » الثامن بالزحف اولاً بقيادة الكابتن ادولف . هل فهمت يا حضرة الكابتن ؟

فقال ادولف : — فهمت يا حضرة الماجور

وكان في لهجة ادولف رنة لم يدركها سوى بكرسبرج اذ علم ما فيها من التوبيخ السري ولذلك حاول بكرسبرج اجتناب نظرات ادولف فواصل كلامه وقال :

— ويلي ذلك « البلوك » السابع فالسادس فالخامس بعكس الترتيب . هل الامر واضح ؟

فقالوا جميعاً : — كل الوضوح

فقال : — ولما كنت اعلم برسالة اورطتي التي افتخر بقيادتها فلا ارى لزوماً لايصائكم بما يتحتم على كل واحد منا بازاء هذا الواجب . فلم يبق اذاً سوى ان نهتف لجلالة الامبراطور ثلاثاً

فوقف جميعهم وهتفوا . ثم قال بكرسبرج :

— لا يزال لدينا بضع دقائق فاذا اراد احدكم ان يقول كلمة او يوصي شيئاً فله ان يفعل ذلك

فسكتوا جميعاً ولم ينبس احد ببنت شفة فتقدم بكرسبرج اذ ذاك ومد يده لمصافحة ادولف . فصافحه هذا مودعاً وقال له : — الوداع يا بكرسبرج . كن رؤوفاً بـ . . . .

ولم يستطع ان يكمل عبارته . ولكن بكرسبرج علم انه أراد أن يقول له « كن رؤوفاً بميلاني » فسكت ثم صافح كلاً من الضباط الثلاثة الباقين . ثم جلس كل منهم يكتب وصيته . وما هي الاّ بضع دقائق حتى نفخ بالبوق فنهضوا جميعاً وهم سكوت

الفصل السادس

في الغابة

سار « البلوك » الثامن في وسط الغابة وفي يد كل جندي فأساً يشق له بها طريقاً وبعد قليل وصل البلوك الثامن الى حافة الغابة الغربيـة فدخل الجنود بين الاعشاب يسترون بنادقهم وظلوا سائرين الى ان امرهم الكابتن ادولف بالوقوف . فوقفوا وحطوا رحالهم منتظرين قدوم العدو

وظل ادولف يجيل منظاره في جميع الجهات لعله يرى اثراً لجنود الاعداء ولبث القوم على هذه الحالة نحو ثلاث ساعات كأن على رؤوسهم الطير

اما الماجور بكرسبرج فظل واقفاً على مرتفع مجاور للغابة ليشرف على كل ما يجري حوله و بينه و بين طلائع البلوك الثامن نحو مئتي ذراع

وكان واقفاً معه الملازم شلوسر من « اركان حرب » الاورطة فالتفت اليه بكرسبرج وقال له : ـ كم الساعة الان ؟

— نحو السادسة الاَّ ربع

— يظهر ان تقرير الطيار مبني على خدعة اذ لم نر حتى الان اثراً للعدو

— ان الفرنسويين ماهرون في الخدعات الحربية .

— مر بتوزيع الجراية على الجنود لانهم كادوا يخورون من الجوع

فأمر الملازم جندياً يدعى شويجلر بأن ينفخ بالبوق و يدعو الجنود لاخذ الجراية .

ثم التفت بكرسبرج الى شلوسر وقال له :

— بلغني يا شلوسر انك شاعر

— لا اعلم هل يحق لي ان ادعي هذا الشرف

— الظاهر انك نظمت نشيداً خاصاً لاورطتنا وقد تعلمه الجنود وصاروا ينشدونه

— نعم نظمت النشيد غير معتقد ان الجنود سيتعلمونه

— ماذا كنت تفعل قبل انضمامك الى الجيش ؟

— لم اكن أفعل شيئاً فان عمري لم يجاوز الرابعة والعشرين . وكان عمي قد

توفي في المكسيك وترك لي ثروة طائلة

— اذاً انت أحسن حظاً من غيرك

— لا اعلم هل يجوز ان يقال انني احسن حظاً من غيري فانني لا أتوقع الخروج حياً من هذه الغابة

— وماذا كنت تنوي ان تفعل لولا نشوب الحرب ؟

— لا اعلم سوى انني كنت اكره الجندية وقد زادت هذه الحرب كرهي لها

— ولما ذا ؟

— لان الجندي لا يختلف عن الرقيق في شيء على الاطلاق

— صدقت ولكن ما العمل ونحن قوم نؤله الجندية ؟ خذني مثالاً على ذلك . لقد ناهزت الخمسين ولم أعرف من الحياة سوى التمرينات العسكرية . فقد نشأت منذ حداثتي عليها ولم اكن أجد شيئاً آخر سواها فظلت تلازمني في جميع ادوار سيرتي منذ كنت ملازماً حتى الآن . وهكذا كان ابي وجدي وابو جدي وجد جدي فقد تلقينا كلنا مبادىء العسكرية في جمبنين ثم في فورباخ كما يفعل جميع الشبان في المانيا . ولكن قل لي . من اين أنت ؟

— من برلين

— وهل فيها تخرجت في العلوم العسكرية ؟

— نعم . ولكنني بدأت سيرتي بدخولي مدرسة فرنسوية ابتدائية . وكنت أريد ان استعد للدخول في جامعة برلين ولكن جميع الاهل والاصدقاء ألحوا عليَّ بان انتظم في سلك المدرسة الحربية ففعلت ذلك . وكانت بي عاطفة شعرية حافظت عليها وسعيت لترقيتها واتمامها ولا اعلم هل افلحت أم لا

— اظن انك قد أفلحت

— وما الذي يحملك على هذا الظن ؟

— لانني قرأت لك شعرك الذي تقول فيه « ان العالم دافع ومدفوع وكل مدفوع يظن انه دافع » . ولعمري لم يصدق شاعر في قول صدقك في شعرك هذا . وربما كان العالم كله الان مدفوع

— هذا رأيي

— وهو ينطبق علينا نحن أشد الانطباق .

— يسرني ان تكون على مثل هذه الآراء فقد كنت اخشى ان اجاهر بها حذراً من ان يتهمني الناس بمخالفة المألوف

— قل ما تعتقد ولا تخشَ لومة لائم هل تذكر قصة ميرابو ؟

— خطيب الثورة الفرنسوية ؟

— بعينه

— اذكره

— لقد كان اعظم سياسي انجبته الثورة الفرنسوية وكان العالم كله يعتقد انه هو الذي يسير دفة تلك الثورة و يدفع سفينتها الى الامام وفي الحقيقة انه كان مدفوعاً بعوامل اخرى لم يكن له سلطة عليها . أتعلم ماذا قال قبيل وفاته ؟

— لا أتذكر

— قال لخادمه : « احتفظ بجمجمتي فانها اقوى جمجمة في فرنسا كلها وقد كانت تسيّر دفة السياسة على هواها » . ولكن هل كان مصيباً في قوله ؟

— لا أظن

— لقد كان منخدعاً مغروراً يعتقد انه يسيّر دفة السياسة الفرنسوية مع انه كان مسوقاً بعوامل وقوات لا يستطيع مقاومتها . ولكن ما لنا ولهذا الحديث . لقد حضر الطعام

الفصل السابع

عرض الاورطة

و بعد تناول الطعام قدم الكولونيل فون ترومان لعرض الاورطة . فاستقبله الماجور فون بكرسبرج فترجل الكولونيل عن حصانه وسار مع الماجور قليلاً وقال له :

— اردت ان اطلع على ما يجري هنا بنفسي فجئت لفحص الحالة . هل جاءتكم

اخبار من خط النار ؟

— كلا يا حضرة الكولونيل

— وهل سمعتم شيئاً جديداً عن ذلك التقرير ؟

— تقرير الطيار ؟

— بعينه

— لم نسمع شيئاً

— اذاً الارجح ان الامر خدعة

— لا استغرب ذلك من الفرنسويين وليست هذه اول خدعة خدعونا بها في هذه الحرب

— لقد كان هذا امرنا معهم في حرب السبعين ايضاً

— ولكن جيشنا في حرب السبعين كان . . .

— ماذا كان ؟

— لقد كان لنا في حرب السبعين مولتكي . اما اليوم . . .

— اما اليوم ؟

— اما اليوم فان معارك هذه الحرب غير معارك ويزنبرغ وسان بريفا وجرافلوت وسيدان

— انتظر قليلاً

— لقد انتظرنا كثيراً وكأني بجيشنا مشدود الى ظهر سلحفاة تسير سيراً أبطأ من سير النملة

— أتظن ذلك يا حضرة الماجور ؟

— هو الحقيقة بعينها

و بينما هما سائران وصلا الى الشرذمة الاولى من الجنود وكان افرادها مضطجعين على وجوههم على الارض وايديهم على زناد بنادقهم ينتظرون ظهور العدو ليطلقوا عليه النار ووصل الكولونيل الى الجندي الاول فحاول هذا النهوض لاداء التحية ولكن الكولونيل منعه من ذلك قائلاً :— مكانك . ألا تعلم ان القانون لا يجيز لك ان تتحرك في هذه الحالة ؟

— نعم يا مولاي

— الى اي مدى تطلق بندقيتك عند ظهور العدو في ذلك المكان ؟

قال ذلك واشار الى موضع في الجهة المقابلة . فقال الجندي :— الى المدى الذي يعينه الضابط

— ولكن هب ان الضابط قتل اوكان غائباً ثم ظهر العدو بغتة عند تلك الشجرة ...

— اي شجرة يا مولاي ؟

— تلك الكبيرة

— اطلق البندقية الى مدى ألف ومائتي ذراع

— حسناً . وكيف تعلم ذلك ؟

— لان الضابط قال لنا ذلك

— اذاً انت لا تعلم من نفسك

— وما عسى الجندي البسيط ان يعلم يا مولاي وهو مجرد آلة لا يؤذن له في استعمال عقله ولا يسمح له باتيان أدنى امر سوى ما يؤمر به

فهز الكولونيل رأسه واستمر سائراً حتى وصل الى جندي آخر . فعرضه كما عرض سابقه وبعد بضع دقائق انصرف وقد اكتفى بما شاهده

***

ومرت على ذلك نصف ساعة واذا صوت الكابتن ادولف يرن في جنودة قائلاً :

— مدى ٨٠٠ يرد !

فعلم الجميع اذ ذاك ان العدو قد ظهر بعد ذلك الانتظار الطويل . والتفت الماجور بكرسبرج الى الضابط شلوسر وقال له : — اذاً فالتقرير ليس خدعة . فقال شلوسر : — الظاهر انه حقيقي

ولم يكن يجول في فكر الجنود اذ ذاك الا الوثوب الى العدو والهجوم عليه

وبعد هنيهة رنَّ صوت ادولف في الجنود ثانية وهو يقول : — مدى ٦٠٠ يرد ! ثم صاح بعد قليل : مدى — ٥٠٠ يرد !

فقال بكرسبرج في نفسه يظهر ان العدو ينبت من كل موضع . انه ليدهشني ان يكون قد اصبح على مدى ٥٠٠ يرد منا بدون ان نراه

وعلم شلوسر ما كان يجول في فكر بكرسبرج فقال له : — ان هولاء الفرنسويين هم جان عفاريت . فقد دنوا منا زاحفين على بطونهم ونحن لا نشعر بهم حتى أصبحوا على مقربة منا . فهم اذ ذاك خونة يجوز لنا قتل كل اسير يقع منهم في ايدينا

فابتسم بكرسبرج ابتسامة ازدراء وقد أحس بدنو الخطر وقال :— انهم يفعلون مايسوغ لهم فعله في الدفاع عن أوطانهم . ولو وطئت اقدامهم بلادنا لعاملناهم بنفس معاملتهم اليوم لنا . ألم يخلد أحد شعرائنا ذكر « وليم تل » لانه اختبأ في شجرة وقتل حاكم بلاده الظالم . وقد أصبحت القصيدة خالدة يتعلمها جميع اولاد مدارسنا

وقبل ان يفرغ من عبارته دوت في الفضاء طلقات متتابعة . فقال الماجور : — صه . ما هذا ؟ هل هي أصوات بنادق ؟

فقال شلوسر : — بل هي أصوات المدافع السريعة

ثم رنّ صوت الكابتن ادولف مرة أخرى يأمر الجنود باطلاق النار على مدى ٤٠٠ يرد ومعنى ذلك ان العدو أصبح على مدى تلك المسافة منهم . وبعبارة أخرى ان الخطر أصبح شديداً جداً والمعركة حمي وطيسها

على ان بنادق الجنود الالمان قلت طلقاتها وضعفت أصواتها . فقال شلوسر للماجور وقد امتقع وجهه وأصبح كوجوه الاموات : — يظهر ان مدافع العدو تفتك برجالنا !

فنظر اليه بكرسبرج ولم يبد جواباً وظل يقضم طرف شاربيه وهو يفكر . . . وفيمن ؟ في فيربالن . . . في فالكنستين . . . في ميلاني . . . في ايامه السالفة . لانه رأى نفسه امام شبح الموت لا يفصله عنه سوى بضع دقائق . . . لان الامل بالانتصار قد ضاع

وبعد هنيهة قال شلوسر : — ان اطلاق البنادق من جانبنا قد وصل الى أضعف ما يكون فهل اذهب واستطلع الحالة ؟

— بل ابقَ هنا

ثم رن صوت الكابتن ادولف مرة أخرى قائلاً : — مدى اربعمائة ! فلم يلبِّ النداء سوى طلقين فقط . فعض الماجور بكرسبرج شفته من شدة الذعر وعلم ان جنود البلوك الثامن قد قتلوا كلهم تقريباً . ولكن الذي ازعجه هو صوت ادولف

فتمتم لنفسه قائلا : — يظهر ان ادولف محفوظ بطلسم من الطلاسم

وخيل الى شلوسر انه يسمع صوته فسأله : — هل كلمتني ؟ فلم يجبه بكرسبرج بكلمة بل غرز رجله في الارض . وكانت جبهة شلوسر تتصبب عرقاً وهو يتصور شبح الموت يدنو منه قيراطاً قيراطاً . ثم سمع صوت ادولف مرة أخرى يقول : — مدى ٣٠٠ يرد ! فلم يلبه سوى طلق واحد فاستدل شلوسر من ذلك على انه لم يبق من جنود البلوك كله سوى جندي واحد . وما هي الا لحظة حتى بدأت مدفعية الفرنسويين تقصف فارتجف شلوسر وعلته صفرة الموت اذ كان قد حسب لكل شيء حساباً ما عدا نيران المدافع

اما بكرسبرج فلم يزعجه الا فكر واحد وهو ان ادولف كان لا يزال حياً يقاتل قتال الاسود مع انه ارسله بيده الى حتفه . وبينما هو يفكر في الامر اذا جندي آت يزحف زحفاً والدم يسيل من جبينه وهو نصف مغمى عليه . فما تم ان وصل الى بكرسبرج حتى قال له وهو يلهث من شدة الاعياء والنزيف : — مولاي ان الكابتن ادولف مواجه الموت . وهو في اشد الحاجة الى مدد !

فعض الماجور شفتيه وقال : — قل للكابتن ادولف ان أوامر الكولونيل هي ان يثبت ويدافع حتى آخر رجل !

— ولكن لم يبق من بلوكنا على ما اعلم سواي انا ورجل آخر والكابتن ادولف

— ان أوامر الكولونيل هي الثبات والدفاع حتى آخر رجل

— سمعاً وطاعة يا مولاي

ثم عاد الجندي والدم يسيل منه كجدول . وما هي الا لحظة حتى اختفى عن الانظار . واذا صوت الكابتن ادولف يرن مرة أخرى آمراً الجنود ان يطلقوا النار على مدى مائتي يرد

ولكن لم يكن قد بقي من جنود البلوك احد يلبي النداء

فعض بكرسبرج شفتيه مرة أخرى لان ادولف كان لا يزال حياً . فقال في نفسه: ترى أمات الموت أم ذعر الذعر ؟

ثم أمر بان يتقدم البلوك السابع

الفصل الثامن

جرح الماجور

ومرت نصف ساعة أخرى عانى فيها بكرسبرج من جهاد النفس أشد مما عاناه الكابتن ادولف ومن بقي من جنوده الجرحى . وكان البلوك السابع بعيداً في الساقة والطريق التي عليه اجتيازها شاقة وعرة

اما الكابتن ادولف فامر نافخ البوق ان يطلب المدد في الحال . ففخ بالبوق فاجابه بوق البلوك السابع

وسمع الماجور بكرسبرج دويّ البوقين . وكأن حملاً ازيح عن عاتقه فعلم ان المدد يجد السير للوصول الى موقف الكابتن ادولف . ذلك لأن وخز الضمير اشتد به فصار يريد ان يساعد ادولف قبل فوات الفرصة

وسمع صفير البوق مرة اخرى فعلم ان البلوك السابع قد دنا من موقف الكابتن ادولف كثيراً . فالتفت الى شلوسر وقال له : — الحمد لله ان المدد لم يتأخر واظن انه سيصل في الوقت اللازم

وكان قصف المدافع يصم الآذان . ومع ان الموقف كان اشبه بيوم الحشر شعر بكرسبرج في تلك الدقيقة بشيء من راحة الضمير اذ لاح له انه سيستطيع انقاذ ادولف بعد ان ارسله الى حتفه

ثم اخرج من جيبه حق اللفائف (علبة السجائر) وقدم الى شلوسر لفافة . فاعتذر هذا عن رفضها متلطفاً . فلحظ بكرسبرج ان اعصابه متهيجة بسبب حرج الحالة واراد ان يعلم حقيقة الحال فقال لشلوسر : — تولّ القيادة ريثما انطلق وارى الحالة والسبب الذي حمله على هذا ان صوت ادولف لم يعد يسمع بعد انقطاع دابر البلوك الثامن . فاراد ان يعلم الحقيقة . هل قتل ادولف ؟

وبينما هو منطلق اذا جندي آتٍ يركض ويلهث من شدة التعب وهو يقول : مولاي . اسرعوا بارسال المدد الى الكابتن ادولف . انه في احرج المواقف . فقد وصل البلوك السابع ولم يبق من رجاله الا افراد قلائل

فجد الماجور السير . وكان البلوك السادس قد بدأ بالزحف ليشد ازر البلوك السابع . وقبل ان يصل الماجور بكرسبرج الى ميدان المعمعة سمع دوي رصاص القنابل يزداد شدة . فعلم ان المدد قد وصل في حينه

ولما وصل بكرسبرج رأى المعركة قد بلغت اشدها فهمز حصانه ليصل الى جانب ادرلف . وحانت من ادولف التفاتة فابصره قادماً ولكن قبل ان ينطق بكلمة رآه يتهادى و يسقط عن حصانه الى الارض

ذلك لان رصاصة اصابته فقلبته عن حصانه فخر مضرجاً بدمائه

وادرك ادولف للحال ما حصل فامر « الباش شاويش » ان يتولى قيادة البلوك وهرع الى بكرسبرج واكبَّ عليه . فرأى الدم متفجراً منه . فخاطبه فلم يجبه بكلمة . فهزه ليعلم هل هو بعد حي

وكان وهو يفحصه معرضاً لخطر شديد ورصاص البنادق ينهال حوله انهيال المطر

وهز ادولف الجريح بعنف مرة أخرى ليعلم هل به حياة فلم يجبه مجيب . فنادى احد الجنود ليساعده على نقل الجثة الى موضع امان

وتمكنا بعد عناء من اقصائها عن مرمى البنادق . ولم يعد ادولف يفكر في شيء سوى الاعتناء بالجريح اذ كان يعتقد انه لا يزال على قيد الحياة . ثم جلس هو والجندي يفحصان الجرح ويبحثان عنه . واذا الماجور يتنفس قليلاً فصاح ادولف : الحمد لله انه لا يزال حياً !

وكان هزيم المدافع وقصف البنادق يزدادان شدة ويصمان الآذان . ولكن ادولف لم يعبأ بشيء لان همه الوحيد كان انقاذ بكرسبرج اكراماً لميلاني . . .

وخلع ادولف ثيابه ومزق قميصه واخذ منه قطعة ليضمد الجرح . وبعد ان عالجه بما يحمله الجنود عادة من المطهرات والمعقمات تنفس كأن حملاً ثقيلاً قد ازيح عن عاتقه

ثم التفت الى الجندي — واسمه كام — وقال له : لننقله الآن الى اقرب محطة فان اطلاق النار قد خف

فنقلاه الى مركز قيادة الاورطة حيث كان شلوسر لا يزال في الانتظار . فلما رأى هذا ذلك المنظر ارتاع لانه لم يكن يتوقع ان يرى بكرسبرج على تلك الحال

وبعد بضع دقائق فتح بكرسبرج عينيه . وعادت الحياة تدب في جسمه فسأل : أين انا ؟

فقال ادولف : — في موضع امان يا بكرسبرج

— أهو انت يا ادولف ؟

— نعم انا

— واين كنت ؟

— في خط النار

— لقد تذكرت . ولكن ماذا حصل ؟

— جرحت بشظية قنبلة . والحمد لله انك في امان

— وانت يا ادولف ؟ هل انت سليم ؟

— نعم والحمد لله

— الحمد لله

ثم عاد فغاب عن وجدانه . فقال ادولف للجندي : — هلم نرجع الى مكاننا فان اللفتنانت شلوسر يهتم بامر الماجور

وهكذا عاد ادولف وتقلد قيادة خط النار . وكانت جميع البلوكات قد اشتبكت في القتال وكادت تبيد على بكرة ابيها فلم يخيم الظلام الا واورطة بكرسبرج قد اصبحت أثراً بعد عين . الا ان بكرسبرج نفسه لم يعلم شيئاً من ذلك لانه كان لا يزال في حالة غيبوبة

وعند منتصف الليل صحا من غيبوبته ورجع الى نفسه فشعر بألم الجرح . وكأن الجرح اعاد الى ذهنه ذكر ميلاني فاخذ يتساءل في نفسه عما عساه ان يكون قد حصل في فالكنستين وفي الميدان الشرقي حيث الجحافل الروسية تهدد پروسيا الشرقية

وبينما هو كذلك عاد الى ذهنه صوت ادولف وهو يأمر الجنود باطلاق النار على مدى الف يرد ثم على مدى ٨٠٠ ثم ٦٠٠ ثم ٣٠٠ يرد

الفصل التاسع

في روزي

كان پيير بونيون « عمدة » قرية روزي منذ ثماني سنوات لم يشهد في خلالها من القلاقل والاضطرابات ما شهد في ايامه الاخيرة . وكان في نحو الستين من عمره وهو ارمل وعلى شيء من الثروة وله حانة يتردد اليها معظم أهل القرية واسمها « حانة دي ريزان »

وكان دولاب الاعمال متوقفاً والمتاجر كاسدة بسبب الحرب . وقد تدفقت كتائب الالمان على روزي فغصت بهم بيوتها وشوارعها وزاد الطين بلة ان الغزاة وضعوا يدهم على كل شيء من طعام وشراب ولم يتركوا للاهالي الا النزر اليسير

وفي ذات يوم بينما پيير بونيون يفكر في هذه الامور وما آلت اليه الاحوال جاءه جندي الماني يتكلم الفرنسوية وسلم اليه امراً من قائد اورطته مؤداه ان القائد سيزور حانته بعد نصف ساعة . فاخذ يفكر في ما عسى ان يكون وراء تلك الزيارة

وكان في الحانة بضعة من الزبائن يقطعون الوقت حسب عادتهم كل يوم بعد الفراغ من اشغالهم . ولعل الذي كان يجذبهم بالاكثر الى هناك « جان » ابنة اخت بونيون التي كانت تخدم الزبائن وهي فتاة حسناء ذات جمال رائع لا يشوبه شيء سوى انها كانت خادمة في حانة

وكان من الزبائن ثلاثة جالسين الى مائدة معاً يتجاذبون اطراف الحديث وهم مارتو وروس ومارسل . وكانوا ينتقلون في احاديثهم من موضوع الى موضوع

ودنا منهم بونيون على اثر انصراف الجندي الالماني وسأل مارتو قائلاً :— كم من الجنود في بيتك ؟

— قال لعنهم الله انني لا اعرف عددهم

— وأنت يا روس ؟

— ثلة كاملة

— لعنهم الله

— لعنهم الله

ثم عاد بونيون الى محله وسأل جان اين ابنه لويس فقالت لا اعلم. قال :— ألم يكن معك منذ ربع ساعة ؟

قالت : — نعم

— وأين ذهب ؟

— لم يقل لي

فاراد ان يخرج ليبحث عنه ولكنه تذكر ان قائد الاورطة المحتلة روزي كان عازماً ان يزوره . وفي الواقع انه لم يأتِ الموعد المضروب حتى أقبل القائد وهو الماجور فون بكرسبرج بعينه وكان قد شفي من جرحه ولكن ذراعه معلقة برباط الى عنقه . وكان بصحبته الشاويش ولف . فلما دخلا الحانة جلسا الى مائدة فاسرعت « جان » لتهيئها ثم طلب اليها الماجور دواة وقلماً فاسرعت وجاءت بهما . ثم سألتهما حسب عادتها ماذا يريدان ان يشربا فطلب منها الماجور نبيذاً فاسرعت وجاءت به ووضعته أمامهما

ولم يجسر الشاويش ان يمد يده ليشرب حتى امره الضابط فشرب

وحاول بكرسبرج ان يمسك بالقلم ولكنه شعر بشيء من الالم في ذراعه لان الجرح لم يكن قد اندمل فوضع القلم على المائدة وتناول كأسه ورفعها الى شفتيه شارباً نخب شاويشه لاول مرة

قلنا لاول مرة لان قوانين الجيش الالماني لا تأذن بان يجلس الضابط ويشارب شاويشاً . على ان بكرسبرج خالف القانون هذه المرة وتجاذب اطراف الحديث مع الشاويش وهاك ما دار بينهما :

قال بكرسبرج : — لقد كان انتصارنا هنا تاماً من جميع الوجوه

— نعم يا سيدي ولكن خسارتنا لم تكن قليلة

— صحيح . صحيح . ترى كيف حال الكولونيل ؟

— يقول الطبيب انه لم ينج بعد من الخطر

— وهل علم ما به ؟

— رصاصة في احدى الرئتين

— وبقية ضباط البلوكات ؟ هل جاءت تقاريرهم ؟

— لم تأت حتى الآن

فهز بكرسبرج رأسه وقال :

— لا بد ان المسألة أعظم مما تتصورها

— هو ما تقول يا سيدي فان خسائرنا بلغت على ما يقال ثمانين في المائة

— أتظن التقدير صحيحاً ؟

— أظنه صحيحاً فان بعض البلوكات ابيدت على بكرة ابيها

— لقد علمت ذلك

— كالبلوك الثامن فقط فانه لم يبق منه سوى ستة رجال والكابتن ادولف

وكأن مجرى كهربائياً مرّ باعصاب بكرسبرج عند سماعه ذكرى الكابتن ادولف والبلوك الثامن فتوهم ان الشاويش ذكر ذلك متعمداً فعادت الى ذهنه تلك الذكرى المشؤومة

وظل الشاويش يتكلم فقال : — والحمد لله على نجاة الكابتن ادولف فان الاقدار رتبت ان ينقذك يا سيدي عندما وقعت جريحاً

فزاد هذا الفكر في انزعاج بكرسبرج وأخذ يفكر كيف كان يحاول قتل ادولف مع ان ادولف خاطر بحياته وأنقذه من الموت

وبعد سكوت هنيهة قال للشاويش :

— هل طلبت من الكابتن ادولف واللفتنانت شلوس ان يأتيا الى هنا ؟

— نعم يا سيدي

— وكلوتز ؟

— أمرته بالحضور

— وهل يتكلم كلوتز الفرنسوية جيداً

— يحسنها كأحد ابنائها

— حسناً والحمد لله انه لم يقتل مع رجال بلوكه اذ ليس بيننا من يحسن الفرنسوية

فوافق الشاويش على كلامه . ثم تناول كلاهما جرعة أخرى من النبيذ وقال بكرسبرج للشاويش :

— وما أخبار البلوكات الاخرى ؟

— نفس الشيء

— أكانت خسارتها كبيرة

— جداً

— كم بلغت يا ترى ؟

— معظمها ٨٠ في المائة

— هل جاءت التقارير ؟

— لم تصل بعد ولكن الاشاعات كثيرة متواترة

— لا بأس من الخسارة

— الا اذا كانت فادحة يا سيدي

— لتكن كذلك . ألم نفز بالاحداق بالحصن ؟

— نعم فعلنا ذلك يا سيدي

— فماذا تهمنا الخسارة حتى لو عمت الآلاي كله ؟

فلم يجب الشاويش بل تظاهر بتناول جرعة من النبيذ . وبينما هو يفعل ذلك دخل الكابتن ادولف والضابط شلوسر . فحاول الشاويش ان ينهض من موضعه ولكن الكابتن ادولف أشار اليه بالبقاء ثم حيا بكرسبرج وسأله عن جرحه فقال هذا انه لم يندمل بعد

ثم جلس القادمان فامر بكرسبرج الشاويش ان يذهب ويستدعي كلوتز . فخرج هذا محيياً ثم جاء جان تسأل القادمين الجديدين ماذا يطلبان ليشربا فطلبا نبيذاً فاسرعت وجاءت به ووضعته امامهما . ثم التفت ادولف الى بكرسبرج وقال له :

— كان يجب ان تعمل بنصيحة الطبيب وتذهب « باجازة » الى البيت

— الى البيت ؟ ألا تعلم انه لم يبق لي بيت بعد رحيلها عن فالكنستين ؟

ثم أجال بصره في الفضاء ساكتاً هنيهة لان افكاراً مختلفة كانت تتجاذبه . وعاد اليه ذكرى جرحه فقال لادولف :

— انني لن انسى . . .

— أي شيء لن تنسى ؟

— انك انقذتني

— وهل في ذلك أمر غريب ؟

— لم يكن غريباً ولكنه دليل مروءة نادرة

— انني فعلت الواجب يا بكرسبرج لانك رئيسي

— أكان ذلك السبب الوحيد ؟

— لم يكن ثمت غيره

— اذاً . . .

ثم سكت

وكان الضابط شلوسر ينظر في اثناء هذه المحادثة الى صور معلقة على الحائط . وبعد بضع دقائق عاد الشاويش ولف ومعه الجندي كلوتز

فسأله الماجور :

— أتحسن اللغة الفرنسوية ؟

— نعم يا سيدي

— اذاً اجلس على هذا الكرسي

ثم أمر الشاويش ان يكتب « محضر » الجلسة ،عاد فقال لكلوتز :

— قل للرجل الواقف هناك ان يتقدم الى هنا

فنادى كلوتز پيير بونيون فتقدم هذا ووقف امام الماجور . فقال هذا مخاطباً كلوتز :

— سله عن اسمه ولقبه وعمره وصناعته

فاعاد كلوتز السؤ ل على بونيون فقال له هذا :

— اسمي پيير ولقبي بونيون وقد ولدت في سنة ١٨٥٣ ووظيفتي عمدة روزي

قال هذا وهو يحرق الارم ولكنه لم يجسر على اظهار حنقه

ثم سأله الماجور هل له اولاد و بنات وهل هم متزوجون وكم لهم من الاولاد وهل هم ساكنون في روزي الخ .

وتذكر الماجور الفتاة جان فسأله عنها فاجابه انها ابنة اخته

— وهل من قسيس لهذه القرية ؟

— نعم . الاب بونفيزاج

— وأين يسكن ؟

— بقرب الكنيسة

— ومن اغنى رجل في هذه القرية ؟

— المسيو ارستيد مارتو

— وهل يقيم بهذا الجوار ؟

— مقابل هذه الحانة

— حسن

ثم التفت الى الشاويش وقال له :

— اعط ازامري لكاوتز لكي يقرأها على مسمع من هـذا الرجل ثم يترجمها لتعلق في الشوارع

فاعطى الشاويش الاوامر لكاوتز فقرأها هذا بالفرنسوية . وهاك ترجمتها :

الى اهالي روزي

على اهالي روزي اطاعة الاوامر التالية ومن خالفها منهم يعاقب بالقتل :

(١) لا يجوز حمل الاسلحة

(٢) لا يجوز السير في الشوارع بعد الغسق

(٣) لا يجوز اقفال الشبابيك

(٤) لا يجوز الاعتداء على جنود جلالة الامبراطور

ولما فرغ كاوتز من تلاوة هذه الاوامر على بونيون سأله الماجور : — هل فهمتها ؟

فقال : — نعم فهمتها

— وهل انجزت الاوامر التي ارسلتها اليك هذا الصباح ؟

— أي الاوامر تعني ؟

— المتعلقة بالسلاح

— نعم انجزتها

— وهل جمعت السلاح ؟

— نعم

— أين وضعته ؟

— في اصطبل

— بعيداً عن هذا المكان ؟

— على مسافة بضع دقائق

— هل انت واثق بانك جمعت من الاهالي جميع الاسلحة ؟

— كل الثقة

— أنت مسؤول عن كل مخالفة لهذه الاوامر

— أنا عالم بالمسؤولية

ثم التفت بكرسبرج الى كلوتز وقال له :

— والآن قل للمسيو بونيون انني مضطر الى استبقائه هو وقسيس القرية والرجل الغني . . . ما اسمه ؟

— ارستيد مارتو

— نعم . سأبقيه هو وقسيس القرية وارستيد مارتو رهائن في كنيسة القرية لئلا يعتدي أحد على الاوامر التي اصدرتها

فترجم كلوتز هذا الكلام لبونيون فعض هذا على شفتيه وقال للماجور بلهجة الازدراء :

— اذا أراد حضرة الضابط ذلك . . . .

— نعم أريده وآمر به

ثم التفت بكرسبرج الى الشاويش وقال له :

— خذ معك جنديين واذهب لاحضار القسيس وارستيد مارتو

فخرج الشاويش وكلوتز لانجاز الامر . ثم التفت بكرسبرج الى الضابط شلوسر وطلب منه ان يذهب ويتفقد الاسلحة التي جمعها بونيون من الاهالي فاجاب هذا بالايجاب . ثم طلب من بونيون ان يذهب معه ويريه المكان . فخرج كلاهما وبقي بكرسبرج وادولف وحدهما معاً

فاخذت الافكار تتجاذب بكرسبرج لانه ظل يعتقد ان ادولف ادرك انه كان يريد قتله وانه لهذا الغرض ارسله الى خط النار . ولذلك كانت بضع تلك الدقائق جحيماً لبكرسبرج حتى عاد الشاويش ولف وكلوتز ومعهما القسيس وارستيد مارتو . فامرهما الماجور بالجلوس والانتظار ريثما يحضر الضابط شلوسر وبونيون ثم تفرس

فيها ملياً وقال لادولف همساً :

— ان عيني هذا القسيس تقدحان شرراً وهو كسائر القسوس الذين في الالزاس واللورين فانهم شديدو الحقد على الالمان ويعتقدون ان سحق المانيا هو الواجب الاكبر الذي يطلبه منهم الله والكنيسة

ولم يكد يفرغ من عبارته حتى عاد شلوسر و بونبون فسأله الماجور :

— هل وجدت الاسلحة

— نعم ؟

— هل أخذت بها بياناً ؟

— نعم . وقد أقسم « العمدة » بشرفه انها جميع الاسلحة التي عند الاهالي

— وهل أفهمته انه مسؤول بحياته اذا ظهر انه لا يزال عند الاهالي اسلحة ؟

— لقد افهمته ذلك جيداً

— وكذلك القسيس وارستيد مارتو ؟

— نعم

— وهل تعتقد من مشاهدتك الاسلحة انها كل ما يمكن ان يكون عند اهالي هذه القرية ؟

— ان الاسلحة جميعها قديمة ومعظمها لا يصلح للاستعمال واظن انها كل ما عند الاهالي

فعاد بكرسبرج يوجه السؤال مرة أخرى الى بونيون بواسطة المترجم

— هل الاسلحة التي رآها الضابط شلوسر هي جميع الاسلحة التي عند الاهالي ؟

— هي جميع الاسلحة

ثم طلب بكرسبرج منه ومن القسيس وارستيد مارتو ان يتقدموا ويسمعوا ماسيترجمه لهم كاوتزوها كه : —

« آمر بايقاف العمدة بونيون والقسيس بونفيزاج وارستيد مارتو في كنيسة القرية رهائن ضماناً لسلامة اهالي روزي وسلامة جنود جلالته من الاذى . وفي حالة وقوع اعتداء على أحد من الجنود يكون الاشخاص الثلاثة المذكورون مسؤولين بحياتهم عن ذلك الاعتداء فضلاً عن ان المعتدي نفسه يعاقب بالموت واذا كان الاعتداء عظيماً حفظت

لنفسي الحق في تخريب هذه القرية كلها وجعلها انقاضاً بالية »

ثم التفت بكرسبرج الى بونيون وسأله :

— هل فهمت ايها العمدة ؟

— كل الفهم

— والآن يذهب بكم الشاويش ويسلمكم الى الحراس ثم يخرج منادٍ يطوف بشوارع القرية لتنبيه الاهالي الى وجوب الاخلاد الى السكينة

وبعد ما خرج الجميع التفت بكرسبرج الى كلوتز وقال له :

— هل انت مرابط هنا ؟

— نعم يا سيدي

— اذاً اذهب الى غرفتك وانتظر نصف ساعة لعلني احتاج اليك

فصدع كلوتز بالامر وخرج . وبقي بكرسبرج وادولف وشلوسر . فسأل هذا بكرسبرج هل يطلب منه شيئاً فقال كلا . فاستأذن بالانصراف وبقي بكرسبرج وادولف وحدهما مرة أخرى

وبعد سكوت بضع ثوان قال بكرسبرج لادولف :

— انني اكره اهالي هذه القرية فان مرآهم يدل على الشر وحب الانتقام

— ما عهدي بك تخاف عمال الشر

— لعل الايام قد غيرتني . ألا تقرأ ذلك على وجهي ؟

— كلا

— ألا تعتقد ان صورة الانسان هي مرآة اخلاقه ؟

— قد تكون ذلك وقد يستطيع المرء ان يلبس وجهه برقعاً يستر تحته حقيقة باطنه

— أترى انني من هذا الصنف من الناس ؟

— لم أعهدك كذلك من قبل

— الحقيقة غير ما تعتقد يا ادولف

— لا افهم ما تقول

— خير لك ان لا تفهم . ان البشر ليسوا سوى ممثلين على مسرح العالم

— هذا صحيح

— ونحن من جملة اولئك الممثلين

— وهذا ايضاً صحيح

— والممثل يضطر ان يلبس لكل حالة لبوسها ويقف امام العالم بمظاهر متناقضة

— نعم

— والجيش الالماني يمثل الآن اكبر مأساة شهدها التاريخ والبشر

— وهل لنا نحن ان ننتقد أو نبدي رأياً ؟

— كلا . ولعلنا لا نحيا انا وأنت الى نهاية هذه المأساة

— كلنا عرضة للموت

— هل تذكر يا ادولف ايامنا السالفة ؟

— لن انساها ابداً

— أتذكر ما كنت اقوله لك منذ اربع سنوات وهو ان هذه الحرب ضرورية لا مندوحة عنها ؟

— اذكر ذلك جيداً

— وهل تذكر انني كنت اقول لك بان تربة فرنسا ستكون قبراً لجيش المانيا

— نعم

— وهل في المانيا كلها عاقل لا يعرف من تسبب في هذه الحرب ؟

— المتسبب فيها هو نحن أنفسنا لان حزب الحرب عندنا مصاب بداء حب العظمة والسيادة

— نعم ولذلك كنت أقول لك دائماً ان الحرب واقعة لا محالة وان المانيا مدفوعة اليها قسراً بعوامل لا طاقة لها على ردها أو اجتنابها

— كان في وسعها اجتنابها لو لم تسلم قياد امرها الى الجيش

— ان الجيش هو الحاكم المتصرف وقد ادرك الآن ان الشعب الالماني بدأ يتضجر من هذه الحرب . ولذلك رأى زعماء الحرب انه لا بد من تخدير اعصاب الامة وايهامها ان المانيا في هذه الحرب انما هي فريسة اعتداء فظيع ولذلك فهي مضطرة للدفاع عن كيانها

— ولا ريب في ان هذه الخزعبلات تجوز على البسطاء من العامة

— خذ هذه الجريدة واقرأ

قال ذلك وناوله احدى صحف برلين واشار بأصبعه الى مقالة تنسب الاكاذيب والدسائس الى اعداء المانيا وتقول ان هذه الدول تعمدت اطلاق هذه الحرب من عقالها للقضاء على المانيا وتجارتها

فتناول ادولف الجريدة وقرأ المقالة ثم أعادها الى بكرسبرج هازاً رأسه هزة الازدراء وقال له :

— ألا تذكر احاديثنا في فالكنستين ؟

— نعم اذكرها يا ادولف

— أتذكر يوم كنت اقول لك ان حكومتنا هي التي تعمدت هذه الحرب سواء كانت مدفوعة اليها أو دافعة ؟

— اجل لقد تعمدت الحرب

— (همساً) وهل تجهل أمر اجتماع بوتسدام الذي سبق نشوب الحرب بنحو شهر ؟

— لا انساه والظاهر ان حكاية هذا الاجتماع قد شاعت بين جمهور غير قليل من الضباط مع شدة محاولة الحكومة كتمان امره لانه يثبت كونها تعمدت الحرب واعدت لها عدتها

وبينما هما في هذا الحديث سمعا صوت المنادي ينبه اهالي روزي الى وجوب الاخلاد للسكينة والا عرضوا انفسهم وقريتهم للهلاك

وما هي الا بضع دقائق حتى دوى طلق ناري هائل ثم دخلت رصاصة من نافذة الحانة وأصابت الكابتن ادولف فوقع في مكانه مضرجاً بدمائه

ولا تسل اذ ذاك ما حل ببكرسبرج من الرعب والغضب فانه علم ان اهالي روزي قد هبوا للانتقام

ثم اكبّ على جثة ادولف وقد تولاه شيء من الذهول وعادت اليه في تلك اللحظة ذكرى ايامه الماضية ثم صار يهز جثة ادولف ويخاطبه والدمع مترقرق في اجفانه فلم يجد امامه سوى جثة هامدة فلم يتمالك نفسه عن البكاء فوقع على ادولف يقبله ويصيح « ادولف . ادولف . اما من كلمة . قل كلمة واحدة . أأنت مصاب . قم يا ادولف .

قم انني سأنتقم لك . وستكون النقمة فظيعة قاسية . قم . قم . اجبني يا ادولف . اما من كلمة واحدة ؟ »

ولكن الجثة لم تجبه بكلمة

وفي تلك الدقيقة دخل الضابط شلوسر وقد عراه اصفرار اشبه باصفرار الموت . فلما رأى جثة أدولف زاد ذعره وكاد يعيى عن الكلام

فقال له بكرسبرج : — أرأيت ؟ أنهم قد قتلوا ادولف فسأنتقم منهم نقمة شديدة

— لقد جئت لاخبرك بما تم . فالاهالي قد ثاروا علينا وقتلوا بضعة من الجنود فامرت الجنود باطلاق النار عليهم فقتلنا منهم عدداً كبيراً

— حسناً فعلت . والرهائن ؟

— هم حيث وضعناهم

— اسرع وضاعف الحراس عليهم . انك مسؤول عنهم يا شلوسر

— سيكون ما تريد . هل مات أدولف أم لا يزال فيه حياة

— لا اعلم يا شلوسر ولكني سأثأر له أشد ثأر . انهم انذال

— ألا ترى أن نستدعي جراحاً

— وماذا عسى أن يفعل الجراح ؟

— لعلَّ به حياة

— ان الرصاصة قد اخترقت ظهره

— هل رأيت القاتل ؟

— كلا ولكن لا بد من معرفته

وتعالت اذ ذاك الاصوات في الشوارع وازدحمت الاقدام وعلا ضجيج القوم حتى كاد يصم الاذان . وكان انين الجرحى وبكاء النساء والاولاد مما يفتت الاكباد . ذلك لان الجنود الالمان كانوا يطلقون الرصاص على المارة بدون رحمة ولا شفقة حتى تكردست اشلاء الرجال والنساء والاولاد في الشوارع

وظل بكرسبرج مكباً على جثة أدولف وهو يناديه لعله يرجع الى الحياة . وكان أشد ألمه انه لم يتسع له المجال ليشكره على المعروف الذي أسداه اليه يوم خاطر بنفسه لينقذه من الموت

ومر بذهنه فكر فظيع . فارسل شلوسر ليبحث عن الشاويش ولف ويرسله اليه في الحال . وكان ولف يدير ساعتئذٍ حركة اطلاق النار على الاهالي بدون تمييز . وبعد نحو نصف ساعة وجده شلوسر فارسله الى بكرسبرج فلما وقف امامه سأله هذا هل عنده قنابل محرقة فاجابه بالايجاب فقال

— خذ معك ثلاثين جندياً وكمية من القنابل ثم طوفوا بالقرية واحرقوا كل بيت فيها

— سمعاً وطاعة يا مولاي

— لاتبقوا فيها حجراً على حجر

— سيكون ما تريد يا سيدي

ثم حيا وانصرف فضحك بكرسبرج ضحكة شيطانية قائلاً : « لقد انتقمت ! » . ثم اكب على جثة أدولف مرة اخرى وصاح متنهداً :

« لقد انتقمت لك نقمة تامة يا أدولف فبعد قليل لا يبقى في هذه القرية حجر على حجر ! »

* * *

ولا حاجة الى الاسهاب في ما حل بأهل تلك القرية المنكودة فان خيانة شخص واحد اودت بحياة الاهالي كلهم . ولم يكن ذلك الواحد قد قطع عهداً بالاخلاد الى السكينة وعلى فرض انه قطع عهداً ونكثه أليس هذا عصر الازدراء بالوعود والعهود ؟ ألسنا في عصر شعاره ان المعاهدات ليست سوى قصاصات اوراق وأن الحق للقوة وأن الحرب شر لا بد منه ؟

* * *

ولم تقع نقمة الماجور بكرسبرج على اهالي روزي فقط بل تعدتها الى البهائم والحيوانات التي فيها ايضاً . فلم ينقض ذلك اليوم حتى كانت روزي الزاهرة اكوام انقاض بالية

الفصل العاشر

الحكم بالموت

في تلك الليلة ألفت محكمة عسكرية برآسة الماجور فون بكرسبرج لمحاكمة الرهائن الثلاثة — بونيون ومارتو والاب بونفيزاج ولم تستمر سوى نصف ساعة من الزمن فحكم على الثلاثة بالقتل

وفي صباح اليوم التالي اشرقت الشمس على انقاض روزي ولم يكن قد بقي من اهلها سوى أولئك الثلاثة المنكودي الحظ فسيربهم موثقين حتى وصلوا الى موضع قريب من المقبرة . وكانوا وهم سائرون يبتسمون ابتسامة الازدراء كانهم يزدرون بقوة الجبار الطاغية وبقوانين حربه . ووقف الثلاثة حسب الامر على مقربة من موتاهم الذين كانوا يرقدون بسلام في ظلال الاشجار وبين الازهار والرياحين . وكان الجنود المنوط بهم اطلاق النار بقيادة شلوسر وشاويش يدعى هنريك فوقف شلوسر وابرز من جيبه صورة الحكم وتلاه قائلاً :

« باسم جلالة ملك بروسيا وبموجب الحكم الصادر من المحكمة العسكرية . . . الخ »

ولما فرغ من تلاوة ذلك الحكم — الذي يأمر بقتل ثلاثة من الابرياء باسم جلالة ملك بروسيا — اعطى اشارة للشاويش هنريك ليعصبوا عيون المحكوم عليهم . فمرت بالشاويش رعشة شديدة لانه لم يألف مثل تلك المشاهد المخجلة وقد كان من أسرة اعتادت الرفاهة والسلام . وتذكر في تلك الدقيقة انه رأى مرة قطيعاً من الاغنام يساق معصوب العيون الى المذبحة

ثم تقدم ثلاثة من الجنود ليعصبوا عيون المحكوم عليهم فابى هؤلاء ونضلوا أن ان يظلوا مبصرين حتى تفيض ارواحهم . فحار الجنود والتفتوا الى شلوسر كأنهم يستطلعونه اوامره فسمح بابقاء عيونهم غير معصوبة . ثم نادى الشاويش الجنود أن يقفوا صفاً واحداً فوقفوا فامرهم باطلاق النار فاطلقوها ثلاثاً فسقط الثلاثة يتخبطون بدمائهم . ثم صدر الامر لثلاثة من الجنود أن يحفروا ثلاثة قبور ويدفنوا الجثث وعاد بقية الجنود يسيرون بين انقاض روزي وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها الى عنان السماء كانه بخور الضحايا التي قدمتها روزي

الفصل الحادي عشر

نقمة بنقمة

وعاد الجزارون من المذبحة وقد استراحت ضمائرهم لانجازهم الواجب

وفي عصر ذلك اليوم خرج بكرسبرج راكباً بصحبة الضابط شلوسر ليتنزها قليلا بين انقاض روزي واطلالها . وكان مرأى تلك الخرائب يثير الشجون في النفوس والجنود لا يزالون يعملون ايدي النهب والسرقة فيها — عادة الغزاة في هذا العصر اذا دخلوا بلداً

وكان بكرسبرج قد اعتراه شبه ذهول من حادثة ادولف والضابط شلوسر يحاول تخفيف ما به من ألم الذكرى المشؤومة

وكان اشد ألم بكرسبرج ناتجاً عن انه لم ينفسح له المجال لشكر ادولف . وما كانت اشد دهشته عند ما قال له شلوسر ان الطبيب زار ادولف وأمر بنقل جثته الى المستشفى

ففتح بكرسبرج عينيه محملقاً وقال :

— أصحيح ؟ هل نقلوه الى المستشفى ؟

— نعم . بامر الطبيب نفسه

— اذاً لا يزال هنالك بعض الامل ؟

— لو لم يكن ثمت امل ما أمر الطبيب بنقل جثته

قال ذلك وهو يعتقد ان الطبيب انما امر بنقل الجثة الى المستشفى لتشريحها . ولعل بكرسبرج ادرك ما كان يجول بفكر شلوسر فقال له :

— أتظن ان الطبيب يقصد تشريح الجثة ؟

— لا أدري

— ألم تقابله ؟

— لم أره بعد نقل الجثة . وقد ذهبت عند الظهر لاقابله فلم استطع لانه كان منهمكاً بتضميد جروح الجرحى

***

وكانا اذ ذاك قد وصلا الى ضواحي روزي من جهة المقبرة ومرّا على مقربة من الموضع الذي جرت فيه مجزرة ذلك الصباح فاخذ شلوسر يري بكرسبرج ذلك الموضع و يشير اليه باصبعه من بعد . وحانت منهما التفاتة فلمحا بين القبور شبحاً يتحرك . فنظر اليه بكرسبرج بالنظارة وقال :

— عجباً . انه شبح فتاة ليس وجهها غريباً عني

ثم أعطى نظارته لشلوسر فنظر هذا الى الشبح وصاح : — انه شبح « جان » الفتاة الحسناء التي كانت تخدم في حانة دي ريزان

فقال بكرسبرج متذكراً :

— هي هي بعينها

— ترى ماذا عسى ان تفعل هنا ؟

— لقد جاءت تزور موتاها

— لعلها كانت تحب أحدهم

— كلا ولكن أحدهم كان خالها

ولم يكد يفرغ من عبارته حتى دوى في الفضاء طلق ناري وسقط بكرسبرج عن جواده يتخبط في دماه . ثم دوى طلق ثان وثالث ولكنهما طاشا

ذلك ان جان كانت قد اقسمت ان تنتقم لخالها ولجميع اهل قريتها . فتقلدت بندقية عند وقوع القتال في شوارع روزي وقاتلت قتال الابطال . ثم تمكنت من النجاة فقضت ليلتها بين انقاض القرية الى ان طلع الفجر فذهبت لزيارة الموضع الذي قتل فيه خالها ورفيقاه لتتزود منه بآخر نظرة . ولبثت هنالك الى ان طلع الفجر وهي مصممة على الرجوع للانتقام من بكرسبرج قائد الجنود الالمانية في ذلك الموضع . ولكن الاقدار كفتها مؤونة البحث عنه ودفعته الى يدها عفواً فاطلقت عليه رصاصة اوردته حتفه

ووقف شلوسر لا يجسر ان يبدي حراكا خوفاً من ان تصيبه رصاصة تلحقه برفيقه ورأى السلامة في النجاة فاطلق لجواده العنان وعاد من حيث جاء ليخبر بما رأت عيناه

الفصل الثاني عشر

توالي المصائب

مرَّت بضعة ايام لم تسمع ميلاني في خلالها خبراً عن زوجها . وبدأ القلق يساور البارون فالكنستين لخوفه ان يكون صهره قد قتل فتصبح ابنته اذ ذاك ارملة وايامه هو معدودة . وفي الواقع ان هذا الفكر كان يزعجه جدًّا ويحرمه الرقاد . ومما زاد في مخاوفه ان القطرات كانت تجيء حاملة الوف الجرحى حتى غصت بهم المستشفيات فكانت الحكومة توزعهم على المحطات المختلفة

وفي ذات يوم تلقت ميلاني التلغراف الآتي من وزارة الحربية هاك نصه :

« تنعي الوزارة بكل اسف الماجور فون بكرسبرج »

فلما قرأته شعرت بان الارض تميد تحت قدميها ثم اسرعت الى غرفة ابيها وناولته التلغراف بدون ان تفوه بكلمة

وشعر ابوها وهو يتناول التلغراف بان المقدور قد وقع . فاخذه بيد مرتعشة وتلاه ثم استغرق في سكوت عميق . واصابتهُ نوبة عصبية لم يفق منها الا بعد نحو ساعتين

***

ولم تكن تلك بالمصيبة الوحيدة التي حلت بسيد فالكنستين فانه في ذلك الاسبوع عينه أغارت بعض الطيارات الروسية على البلدة والقت عليها القنابل جرياً على البدعة الجديدة التي استنبطتها المانيا في هذه الحرب . وشاءت الاقدار أن تسقط احدى القنابل على قصر البارون فاضرمت فيهِ النار وتركتهُ اطلالاً بالية

ولم يعش البارون بعد هذه المصائب طويلاً بل قضى نحبه تاركاً مابقي من امواله واملاكه لابنته ميلاني التي اصبحت منذ ذلك الحين وحيدة في هذا العالم

ولم يبق لميلاني اذ ذاك الا همّ واحد وهو أن تبحث عن ادولف وتجده . وقد كادت ترزح تحت اثقال الاحزان . الا أن فكرة وجود ادولف كانت التعزية الوحيدة الباقية لها في الحياة . ولكن أنى تجده واخباره منقطعة منذ عدة ايام وقد ظهر اسمه في قائمة التائهين ؟

ومع ذلك لم تيأس . ألم تكن « قوائم التائهين » عرضة للخطإ كما ثبت من حوادث كثيرة ؟ ألم يكن الكابتن « ورتز » والكابتن « الريخ » والماجور « ويزباخ » من جملة الذين ظهرت اسماؤهم في قائمة التائهين ثم ظهر بعدئذٍ ان الاول أسير والاثنين الباقيين جريحان في احد المستشفيات . فما الذي يمنع من ان يكون ادولف على قيد الحياة في مكان من الامكنة ؟

وفي الواقع انه لولا هذا الامل الضعيف لكانت حالتها مما يرثى له بسبب تراكم المصائب عليها وصيرورتها وحيدة في هذا العالم

الفصل الثالث عشر

في مستشفى الحدود

كان القطار الثامن قد وصل يقل مئات الجرحى من ساحة القتال ومعظمهم في حالة خطرة قلما يرجى شفاؤهم

وكان الجرَّاح هانزمان يتفقد الجرحى الجدد ومعه الممرضة روت (أو راعوث) تساعده في جميع العمليات الجراحية التي كان يجريها باعطائها المخدرات

وعند الظهر وصل قطار آخر من الجرحى فبدئ بانزالهم « وتوزيعهم » وكان منظرهم مما يفتت الاكباد . ومن جملتهم جريح كانت حالته تنذر بالخطر . فامر الطبيب بوضعه موقتاً في احدى الزوايا ريثما يهيأ له سرير . فالتفتت اليه راعوث وقالت :

— لقد غص المستشفى فلم يبقَ سرير لاحد

— لا بد من ايجاد سرير لهذا الجريح

— لم يبقَ شبر ارض نضع عليها جريحاً

— أعدي السرير رقم ١٨

— عليه جريح

— سيموت

— ولكنهُ لم يمت حتى الآن

— لا فائدة من اضاعة الوقت معه فسيموت

— ولكنهُ لايزال حيًّا

— كالميت

فذهبت الممرضة الى السرير رقم ١٨ وجست نبض الجريح فرأته واقفاً . فنادت الطبيب فجاء ونظر اليهِ نظرة قصيرة وقال لها : « لقد قضى » . واكب على صدره كأنه يريد ان يتحقق الامر ثم هز رأسه وقال : « لقد انتهى . ألم أقل لكِ ؟ »

ثم اسرع بعض الجنود فانزلوا الميت عن السرير وجاءوا بالجريح الجديد — ولم يكن يفرق كثيراً عن الميت — فوضعوه على السرير وأخذ الطبيب يفحصهُ . وكان رأسه مضمداً فلا يرى من وجههِ شيء على الاطلاق

و بعد فحص بضع دقائق قال الطبيب :

— ليس الامل كبيراً ولكن سنجري له العملية

فقالت راعوث : — أتظنهُ يستطيع احتمالها ؟

— نعم . واذا لم يستطع فسيلحق بغيره

— ولكن الجرح ليس في رأسهِ فقط بل في ظهره واحدى فخذيه

— ان المهم هو الجرح الذي في رأسه فاذا استطعت اخراج الشظية منهُ كان الامل كبيراً بشفائه . احضري لي الكلوروفورم

— أتعلم انه لم يبقَ لدينا سوى زجاجة واحدة ولا ينتظر أن يرد منهُ شيء قبل نهار غد

— سنقتصد فيه على قدر المستطاع . هل جسست نبضه ؟

— ضعيف جدًّا

— احضري وعاء البرمنغنات

فاحضرت له راعوث المادة المطلوبة لاجل التعقيم . وكان حوله اربعة من الجنود وممرضة أخرى لمساعدته . فبدأوا بحل ضمادات الرأس وغسل الجرح بلطف . وما كاد وجهه يلوح للنظر حتى صاحت الممرضة صيحة عظيمة ووقعت على الارض مغشياً عليها

فدهش الحاضرون واسرعوا لانهاضها . ثم التفت الطبيب الى الممرضة الاخرى وسألها :

— أتعلمين من هو الجريح ؟

— كلا ولكن اسمهُ على ماجاء في القائمة هو الكابتن ادولف

— ألعله من اقربائها ؟

— لا أعلم

ونقلت الممرضة راعوث الى غرفتها ووضعت على سريرها وهي في حالة تشبه الهذيان

وظل الطبيب يجري العملية الى أن تمكن من اخراج الشظية من رأس الجريح . وقد نجح في ذلك نجاحاً تاماً . ثم أخذ يضمد الجرح بعد ان غسله بالمواد المعقمة — والنظافة في هذه العمليات نصف الشفاء — وبعد ان فرغ منهُ سار الى غيره من الجرحى وأخذ يراقب الاطباء الاخرين يجرون العمليات

وكان خارج المستشفى عدد كبير من الجرحى لا يزالون مطروحين على النقالات لعدم وجود محل لهم في الداخل وقد أمر الاطباء باستبقائهم هنالك ريثما يموت بعض الذين في الداخل فيحل بعضهم محلهم . وكانت اصواتهم ومناظرهم تفتت الاكباد وبعضهم يلتمسون ان يعطوا المخدرات أو أن يقضى عليهم ليخلصوا من آلامهم المبرحة

ولم يكن الاطباء يجدون راحة لكثرة ما كان يتوارد عليهم من الجرحى . وفي الواقع ان الدكتور هانزمان كان يشتغل احياناً خمس عشرة ساعة متوالية لا يذوق في خلالها شيئاً من الطعام سوى القليل من اللبن يجرعهُ كما يجرع العليل الدواء ثم يعود لاستئناف عمله . وكان قد قضى في ذلك اليوم ست عشرة ساعة تماماً لم يسترح في خلالها دقيقة واحدة لا هو ولا غيره من الاطباء الذين معهُ . وكاد يحل بهِ الاعياء لولا أن حل أحد الاطباء محله

ولكنه قبل ان يذهب ليرقد اراد ان يعود الممرضة راعوث ويرى كيف حالها . وكانت منذ اول مجيئها الى ذلك المستشفى قد وقعت في نفسهِ موقعاً حسناً وأثر جمالها الفتان ليس فيه فقط بل في جميع الذين كانت تشتغل معهم

فلما وصل الى غرفتها رآها مصابة بحمى شديدة وهي تهذي هذياناً متقطعاً . فجس نبضها وقاس حرارتها ثم أمر لها بدواء وأمر احدى الممرضات ان تراقبها وتسهر عليها وان تدعوه في الحال اذا قضت الضرورة بذلك

وفي الليل نامت نوماً هادئاً

الفصل الرابع عشر

ميلاني وادولف

قضت الممرضة راعوث بضعة أيام في السرير الى ان زالت عنها الحمى تماماً فسمح لها الطبيب بمغادرة سريرها قليلاً . فتوجهت للحال الى سرير الكابتن أدولف ولم تكن جروحه قد التأمت بعد ولكنه كان يتدرج نحو الشفاء يوماً فيوماً . ولما وصلت اليه وجدته نائماً فجلست بقربه تراقبه كما تراقب الأم ولدها حتى مرَّ الطبيب من هنالك فرآها على تلك الحالة فنصح لها ان تعود الى سريرها فطلبت منه أن يأذن لها في البقاء ريثما يصحو الجريح من رقاده

وفي تلك اللحظة فتح الجريح عينيه فرآها منحنية على سريره . فنظر اليها ملياً وهو يستجمع قواه ليتذكر من هي . ثم صاح بغتةً : « ميلاني ! ميلاني ! انت هنا ؟ »

فقالت « نعم انا هو يا ادولف فالحمد لله الذي جمع بيننا »

وكان الطبيب لا يزال واقفاً يراقبهما ويتظاهر بانه يفحص الجريح . وحاول هذا النهوض من سريره ولكن الطبيب منعه . فقال مخاطباً الممرضة :

— وكيف وصلت الى هنا يا ميلاني ؟

— سأخبرك بكل شيء

— وكيف تركت الجميع ؟ أبك وزوجك ؟

— أنا الآن وحيدة يا أدولف لا أب لي ولا زوج

— ماذا تقولين ؟

— لقد مات البارون وقتل الماجور

فتأوّه أدولف وسكت سكوتاً عميقاً كانت دموع ميلاني (راعوث) تترقرق في خلاله

وفرغ الطبيب من فحص الجريح فتركه وسار ليفحص غيره . فبقي أدولف وميلاني وحدهما . فسألت ميلاني أدولف كيف يشعر فقال : « ان الجرح متجه نحو الاندمال ولم أعد أشعر الا بآلام طفيفة »

— وفي أية معركة جرحت ؟

— في معركة إيبر الثانية

— كنت أظنك في فرنسا في الجنوب

— ألا تعلمين أمور الجيش يا ميلاني ؟ فبينما يكون أحدنا متجه الى جهة يؤمر بالانقلاب الى جهة أخرى

— أتعلم ان اسمك ظهر في قائمة المتأهبين !

— صحيح ؟

— نعم . ولكنني لا أثق بتلك القائمة أبداً فقد تعددت الادلة على ان الذين يحررونها لا يستقون أخبارهم من مصادر وثيقة . وقد كنت شديدة الاعتقاد بانني سأجدك في احدى ساحات القتال

— وكيف تمكنت من الوصول الى هنا ؟

— ألا تعلم لاجل من سعيت في المجيء ؟

فسكت ادولف ولم يفه بكلمة . فقالت ميلاني :

— لقد مات الجميع يا أدولف . مات أبي ومات زوجي ومات معظم الذين كنا نعرفهم

قالت ذلك وعادت عيناها فغرورقتا في الدموع . فبغت أدولف وقال :

— وهل توفي البارون ؟

— نعم توفي واحترق بيتنا

— ماذا تقولين

— ألم تقرأ في الصحف خبر الغارة الجوية على فالكنستين ؟

— على فالكنستين ؟

— نعم

— وأية طيارة استطاعت الوصول اليها ؟

— طيارة روسية فعلت ما لم يكن بالحسبان

— وماذا كانت نتيجة الغارة

— أصابت قنبلة منزلنا فجرح والدي وكونز ديجوزيف وجاكوب جروحاً مميتة لم يعيشوا بعدها طويلاً ولم أنج أنا الا باعجوبة . . . . . .

— يا للفظيعة

— ألم يبلغك خبر هذه الغارة وقد مرّ عليها عدة أشهر ؟

— من أين تبلغني ونحن لا يؤذن لنا في مطالعة شيء من الصحف

— كنت أظن انه يؤذن لكم في ذلك

— لا يؤذن لنا الا في قراءة صحيفة خصوصية تصدر في الخنادق وليس فيها الا أخبار النصرات الوهمية وانباء الاضطرابات التي يوهموننا انها حصلت في بلاد الاعداء

— لا أعلم ماذا أقول يا أدولف فلقد كنت حيثما أجول أرى آثار الفظائع التي ارتكبها جنودنا في فرنسا والبلجيك حتى يخيل الى الناظر بان تلك الفظائع كانت في خطتنا الاصلية عند ما شهرنا الحرب

— هو ما تقولين يا ميلاني . اخفضي صوتك لئلاّ يسمعنا أحد . ألم تقرأي كتابات برناردي ونيشته وأمثالها ؟

— لم أقرأ منها شيئاً على الاطلاق

— ان هؤلاء الكتاب يزعمون ان الطريقة الوحيدة لارغام العدوّ هي ارهابه

— بئست هذه الفلسفة

— ولكنها فلسفة الشعب الالماني كله

— ربما

— بل هي الحقيقة يا ميلاني . فقد علمونا ان الغرض من الحرب هو كسر العدوّ بأية طريقة كانت . ولكن ما لنا ولهذه الفلسفة ؟ اخبريني كيف وصلت الى هنا

— أليس الافضل لك أن تستريح الآن ؟

— بل أنا مستريح ولا يلذ لي شيء كحديثك

— بعد وفاة الماجور ووالدي وتراكم المصائب رأيت ان أدخل جمعية الصليب الاحمر لعلي أنسى بعض الذي بي . فذهبت الى البارونة ويزنستين . . .

— امرأة الجنرال ويزنستين ؟

— نعم وقد قتل الجنرال كما تعلم

— نعم سمعت بذلك

— ذهبت اليها وطلبت منها ان تساعدني على الدخول في جمعية الصليب الاحمر .

فارسلتني بكتاب توصية الى الدكتور هانزمان وكان على أهبة المجيء ببعثة طبية من رجال هذه الجمعية وممرضاتها . فلما تقدمت اليه نظر اليَّ نظرة فاحص مدقق ثم سألني :

— اتعلمين ماذا تطلبين ؟

فقلت : تمام العلم يا دكتور

فقال : انني كثيراً ما اتلقى الطلبات من بعض السيدات اللواتي يرغبن في الانضمام الى هذه الجمعية زاعمات انهنّ يستطعن احتمال الاهوال التي لا بدّ لهن من معاناتها

فقلت : انني استطيع معاناة الاهوال فان المصائب قد قست قلبي

قال : ان جانباً كبيراً من الممرضات يغمى عليهن عند رؤية العمليات الجراحية

فقلت : انني أدرك ما تقوله يا دكتور ومع ذلك فانني مصممة على الانتظام في سلك الجمعية

فقال : لقد اضطر ان أجري العمليات الجراحية بلا مخدر (اذا نفد المخدر) فهل تظنين انك تحتملين رؤية الدماء وسماع أنين الجرحى

فقلت : استطيع كل شيء

فقال : خذي اذن هذه البطاقة واذهبي الى مركز الجمعية بشارع زيسل حيث يسجلون اسمك ويعطونك ما تحتاجين اليه من ثياب وخلافها

فشكرته وانصرفت . ولما وصلت الى مركز الجمعية ابدلت اسمي باسم راعوث وفي اليوم التالي ركبت القطار مع الدكتور هانزمان واعضاء بعثته

فسألها أدولف : هل طفتم بمراكز كثيرة ؟

فقالت : كنا في اول الامر مع طلائع الجيش في فرنسا ثم عدنا الى الاقامة بهذا المستشفى . والآن قد اطلعتك على ما جرى لي فهل تطلعني على ما وقع لك !

— لم يقع لي سوى ما يقع لغيري في هذه الحرب ولم اعلم بخبر مقتل الماجور فقد رأيته في معركة ايبر الثانية وكنت قد شفيت من جرحي الاول ثم جرحت في هذه المعركة بشظية قنبلة من قنابل شرابنل ولم اعلم ماذا وقع بعدئذ

وخافت ميلاني ان تكون قد اتعبته فقالت له :

— انني اتركك الآن لتنام يا أدولف وسأعود اليك حالما تستيقظ

فقال لا استطيع النوم فالبثي هنا ولا تذهبي

ولكن الطبيب مر من هنالك ثانية فامرها بالعودة الى سريرها وامر الكابتن ادولف بالتزام الراحة حتى المساء

وعلم الطبيب في ذلك اليوم قصة ميلاني وادولف فزادته اهتماماً بأمر كليهما

الفصل الخامس عشر

العودة الى فالكنستين

مرت بضعة ايام وداعوث (ميلاني) قائمة بتمريض الجرحى ليل نهار . وكان هذا العمل المبرور قد اصبح تعزيتها الوحيدة

أما الكابتن أدولف فبعد شفائه بقليل اطلق سراحه لان الجرح الذي كان قد أصيب به ترك به عاهة تمنعه من البقاء في الجيش . فودع ميلاني مكرهاً وعاد الى المانيا

وكانت ميلاني تفكر في الاستعفاء والرجوع للحاق به ولكن كثرة الجرحى الذين كانت المستشفيات غاصة بهم منعتها من ذلك

واستيقظت في ذات يوم واذا صراخ وعويل . واقبلت صديقتها الممرضة أرينة بوجه اصفر كوجوه الاموات وقالت : — لقد وقعنا في الورطة . جميعنا هالكون !

فسألتها مذعورة : — ما الخبر يا أرينة ؟

قالت : — استعدي للفرار

— ولماذا ؟

— لان عدواً جديداً يهاجمنا

— أتقصدين جيشاً جديداً ؟

— الماء

— الماء ؟

— نعم الماء فان هؤلاء البلجيكيين دهاة انذال

— وما الذي فعلوه ؟

— فتحوا سدود البحر فطغت المياه على الاراضي وجرفت امامها كل شيء وعن قريب تصل الينا فان امواج البحر آخذة بالتدفق بسرعة

— يا للمصيبة !

— وقد هلك الالوف حتى الآن وتلفت جبال الذخائر الشاسخة

— وهل صدرت اوامر بـ . . . ؟

— صدرت اوامر بأن يتقهقر الجيش كله

— والجرحى ؟

— يجب أن نهتم بهم

— كم لدينا من المهلة ؟

— بضع ساعات ربما لا تزيد على ثلاث

ولا تسل اذ ذاك عن الضجة التي قامت في المعسكر فان انين الجرحى وصراخ الجنود وصلا الى كبد السماء . وكان كل يعمل بهمة لانقاذ الذخائر والمهمات اكثر من اهتمامه بانقاذ الجرحى لان معظمهم ممن لم تبق منهم فائدة للجيش بخلاف المدافع والذخائر

ومرت نحو ساعتين في ذلك الاستعداد العظيم . وكان يخيل الى الناظر انه يوم الحشر

وفي منتصف ذلك اليوم كانت المياه قد طغت على تلك الارض فجرفت كل ما أمامها من رجال وذخائر ومهمات . وقدر عدد الذين هلكوا بذلك الفيضان بمئة وعشرين الفاً فضلاً عن الالوف من المدافع

وكانت ميلاني في جملة من نجوا . وبلغ مدى التقهقر عدة أميال الى ان استقرت أقدام الالمان على أرض مرتفعة فصدر اليهم الامر بالوقوف وانشاء الاستحكامات

وكنت ترى جثث الغرقى طافية على وجه الماء . وحطام الذخائر والمهمات منتشرة في كل حدب وصوب

وأمر قائد الفيلق بارسال من نجا من الجرحى الى الوراء لكي لا يكونوا عائقاً في سبيل الجيش . وكان الاعياء قد أخذ من ميلاني كل مأخذ حتى أمرها الطبيب بالتزام الراحة . وفي الواقع ان تلك الحوادث أثرت في أعصابها تأثيراً سيئاً حتى لم يبق لها مناص من الاستقالة . ورأى الدكتور هانزمان انها لا تستطيع ان تحتمل اكثر مما قد احتملت فنصح لها بالاستعفاء

* * *

نرجع بالقارىء الى فالكنستين بعد شهرين من الحوادث التي أشرنا اليها

عادت ميلاني الى تلك البلدة بعد ان استراح بال أهلها من جهة الروس

كانت ميلاني ذات يوم جالسة في منزل قد استأجرته لتقيم فيه . وكان الكابتن أدولف قد ذهب الى هنالك لكي يكون على مقربة منها . ففي عصر ذلك اليوم زارها حسب العادة و بيده بعض الصحف اليومية . فقالت له : ـ ما الاخبار اليوم يا ادولف ؟

قال : ـ أخبار غريبة لا تكاد تصدق

— وما هي ؟

— من جهة روسيا

— هل طاب الروس الصلح ؟

— بل حدث ما هو اهمّ من ذلك . حدث ان القيصر تنزل عن العرش

— ماذا تقول ؟

— ان قيصر روسيا تنزل عن العرش

— أصحيح ؟

— هذا ما تقوله الانباء

— ولكني اعتدت ان لا أثق باقوال الجرائد في هذه الايام

— يظهر ان هذا الخبر صحيح

— أتعني ان قيصر روسيا العظيم يتنزل عن عرش أجداده ؟

— لقد اكره على التنزل

— اذاً لقد علم الروس ان هذه الحرب جنون مطبق وان امبراطورهم هو الذي جرهم اليها

— لا أظن الامر كما تقولين

— ما رأيك اذاً ؟

— رأيي ان الروس مستاؤون من قيصرهم لانه ضعيف العزم لا يواصل الحرب بالشدة اللازمة

— أصحيح ؟

— نعم . والارجح ان هذه هي الحقيقة لان روسيا اكبر الدول البرية وقد كان حلفاؤها ينتظرون منها العجائب ومع ذلك لم تفعل أمراً يستحق الذكر حتى الآن

— لقد فعلت كل ما بوسعها

— نعم انها انتصرت على النمسا في جميع المعارك التي خاضت غمارها . ولكن المانيا كانت تعمد دائماً الى مساعدة حليفتها وترجع الروس الى الوراء

— اذاً تعتقد ان في استطاعة الروس ان يفعلوا اكثر مما قد فعلوا ؟

— بلا ريب

قال ذلك وناولها الجريدة لتقرأ الاخبار . وكانت الاشاعات متواترة يومئذ بين الالمان بان الجواسيس يملأون بلاد الروس . ولم يكن يخفى على رجال القيادة العليا ان في الجيش الروسي عدة خونة مستعدون ان يبيعوا بلادهم للعدو . وفي الواقع ان معظم المعارك التي انكسر فيها الروس انما انكسروا بسبب خيانة بعض القواد

* * *

وظل الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث . ثم نادت ميلاني الخادم وأمرته باعداد الطعام . وقبل ان يجلسا الى المائدة أقبل الهر هانزمان — اخو الدكتور هانزمان — وكان قد تعرف بميلاني بواسطة رسالة تلقاها من أخيه . فطلب اليه الاثنان ان يتناول الطعام معهما فقبل الدعوة شاكراً

وكان الهر هانزمان من أشد أنصار الجامعة الالمانية تعصباً ومن المعتقدين بان المانيا انما اكرهت على خوض غمار هذه الحرب للدفاع عن كيانها . وفي أثناء تناول الطعام سأله الكابتن أدولف هل سمع الاخبار عن روسيا فقال نعم وقد كان هذا الشيء منتظراً من ساعة الى ساعة

فقال أدولف : — ان الخيانة تفعل بروسيا اكثر مما يفعله السيف الالماني . فقد باتت عاصمة القياصرة مسرحاً للدسائس الالمانية ونحن نكيل الذهب جزافاً لشراء ضمائر الخونة وهي طريقة لا تنطبق على الشرف

فقال هانزمان ان المانيا مكرهة على اتباع هذه الوسائل دفاعاً عن كيانها

— وهل أنت ممن يعتقدون هذا الاعتقاد عن اخلاص ؟

— بلا شك

— وهل ان المانيا أعتدي عليها ؟

— بلا شك

— ومن المعتدي عليها ؟

— انكلترا وفرنسا وروسيا . فانكلترا تحسدها وفرنسا تترقب الفرصة للانتقام منها وروسيا تطمع ببسط سيادتها على اوربا

— وهل يعقل ان تقدم انكلترا على محاربة المانيا وهي تعلم انها لا جيش عندها تستطيع ان تقهر به جحافل الالمان ؟

— كانت تعتمد على جحافل فرنسا وروسيا

— وهل يعقل انها تختار لمحاربتنا زماناً كانت فيه الثورة الاهلية بسبب مشكلة ارلندا على الابواب ؟

— وما أهمية الثورات الاهلية في هذه الايام ؟

— لها كل الاهمية . فضلاً عن انه لم يكن بين حليفات انكلترا دولة واحدة مستعدة لهذه الحرب

— ان فرنسا وروسيا لا تحتاجان الى استعداد

— بل تحتاجان اليه كل الحاجة . فكما كانت الثورة الاهلية تهدد انكلترا هكذا كانت الاضطرابات الداخلية تهدد كلتا روسيا وفرنسا

— أية اضطرابات ؟

— اعتصابات العمال في روسيا وهيجان الامة الفرنسوية كلها بسبب قانون الخدمة العسكرية الجديد

— اولم يكن قانون تلك الخدمة دليلاً على ان فرنسا تنوي اطلاق الحرب من عقالها ؟

— بل كان دليلاً على ان فرنسا تنوي مقابلة استعدادات المانيا الهائلة بالمثل . فاننا زدنا جيشنا العامل زيادة لم تكن دول أوربا تنظر اليها بعين الاطمئنان . وكانت أوربا كلها تعلم ان وراء استعداداتنا حرباً دولية هائلة

— ان استعداداتنا لم تكن الا من قبيل الاحتياط للطوارئ

— لا اظن ذلك اذ لم يكن بين دول العالم كلها دولة تجسر أن تطلق الحرب من عقالها سوى المانيا والنمسا . والدليل على ذلك ان معظم الدول كانت تؤيد فكرة التحكيم الدولي ونزع السلاح أو تحديده ما عدانا نحن

— لا اظن أن دولة من الدول كانت تقصد نزع السلاح في الحقيقة

— ان لم تكن تقصد نزع السلاح فلا اقل من تحديده . ألم يقترح وزير البحرية البريطانية أن نوقف بناء البوارج الحربية سنة واحدة نحن وانكلترا معاً فنوفر بذلك ؟

— لم يكن من وراء ذلك فائدة

— ولماذا ؟

— لان السلم المسلح خير ضامن للسلم الحقيقي

— ولكن اذا زاد التسليح عن حاجة الدفاع ؟

— لا يمكن أن يزيد التسليح عن حاجة الدفاع . فقد كان الاسطول الانكليزي ولا يزال صاحب السيادة البحرية

— لقد كان كذلك وسيظل كذلك لان انكلترا لا تتنزل عن هذه السيادة

— كان في امكاننا أن نبلغ شأوها في البحر

— لا اعتقد ذلك ابداً

— لماذا ؟

— لان انكلترا اغنى منا فاذا بنينا بارجة واحدة بنت هي اثنتين

— اذاً ذلك دليل على تمسكها بالسيادة البحرية

— بلا شك . فمن العبث محاولة انتزاعها منها ومن العبث أن يشرب ضباطنا البحريون « نخب ذلك اليوم » الذي ينتزعون فيه تلك السيادة

— اذا انتصرنا براً امكننا انتزاعها

— هذه مسألة فيها نظر . وكلامك دليل على ان المانيا هي التي اطلقت الحرب من عقالها طمعاً بالسيادة

— لعل ما تقوله حق

— بل هو الحق بعينه . ألا تعلم اننا تعمدنا اعلان الحرب بعد ان اتممنا استعدادنا؟

— لا أظن ان استعدادنا كان تاماً

— ان لم يكن تاماً فذلك من حسن حظنا

— وكيف ذلك

— لانه يؤدي الى انكسارنا !

— ان آراءك غريبة

— اؤكد لك أن انكسارنا خير من انتصارنا

— ولماذا ؟

— لان انتصارنا سيؤدي الى تجديد الحرب مرة أخرى بعد بضع سنوات وأما انكسارنا فيكون خير عبرة للدول الطامعة بسيادة العالم

— وأية دولة لا تطمح بالسيادة ؟

— ان العالم متجه نحو الديمقراطية شاءت المانيا أو لم تشأ . فمن العبث اذاً محاولة تأخير عقرب الساعة . لقد قضينا ٤٤ عاماً في الاستعداد لهذه الحرب وكانت حكومتنا تترقب الفرص السانحة لاطلاق غولها من عقاله . وقد سنحت تلك الفرصة بمقتل ولي عهد النمسا فانتهزناها واكرهت النمسا على شهر الحرب على سربيا التعسة

— ألا تعتقد ان سربيا هي سبب هذه الحرب ؟

— هذه تهمة باطلة . فسربيا لم تقتل ولي عهد النمسا ولم يسمع التاريخ ان ثلاثين مليوناً من الجنود وقفوا لقتل بعضهم بعضاً بسبب سفك دم رجل واحد لم تكن نفس المانيا تميل اليه وانما اتخذت موته ذريعة لتنفيذ الخطة التي رسمتها لنفسها في مؤتمر بوتسدام

— أي مؤتمر تعني ؟

— مؤتمر ٥ يوليو الذي جمع فيه الامبراطور جميع سفرائه وقواد جيوشه وزعماء شعبه وسألهم هل أتموا استعداداتهم للحرب

— وهل حكاية هذا المؤتمر صحيحة ؟

— كل الصحة

* * *

جرى هذا الحديث بين ادولف وهانزمان وكانت ميلاني تصغي اليهما بكل انتباه . وظهر اذ ذاك ان هانزمان اقتنع بكل ما قاله ادولف وقال له : — لو انك طفت بالمانيا تخطب في أهلها لأدركوا الحقيقة وزالت القشور عن أعينهم

وكان ذلك عين الحقيقة فان عيون الشعب الالماني تكسوها القشور فلا يدرك الحق من الباطل ولكن لا بد ان يجيء ذلك اليوم فيعلم السبب الذي من أجله ألبسته حكومته اثواب الحداد

* * *

مرت الايام والحرب لا تزال طاحنة . ولم يبق في اوربا بيت لم يلبس السواد ولا أرض لم تخضبها الدماء . ومن مصائب الحرب انها تمنع الناس من الاهتمام بالزواج وتعمير الاوطان . ولا بدع فان أعباء الاحزان ثقيلة جداً تكاد ترزح تحتها القلوب

وانما هناك شواذ . ومن ضمن تلك الشواذ ادولف وميلاني . فانهما قررا ان يتزوجا ويغادرا المانيا الى سويسرا . وهكذا كان . ولا يزالان الآن بعيدين عن أوطانهما سعيدين في غربتهما وقد أقسما كما أقسم غيرهما ان لن يعودا الى المانيا الا اذا انقضى عهد اوتوقراطيتها . ومثلهما كثيرون من الذين نفوا أنفسهم عن الاهل والخلان على أمل العودة متى تغيرت الاحوال

(انتهت)

(مكتبة الحرب)
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

دار الهلال
جحيم المحبين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031850

American University of Beirut

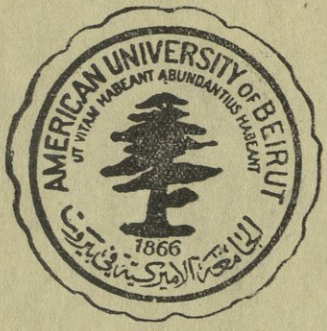

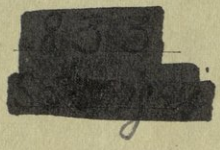

General Library